

روايات مصرده للحيث

توركانا



سافاري

28

Looloo

www.dvd4arab.com

د. محمد خايزنوف



(سافاري) مصطلح غريب تم تحريفه عن كلمة
(سافرية) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافاري)
فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش في ادغال
(إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافاري) التي سنقابلها هنا كانت تصطاد
المرض في القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية
لا تنتهي .. وبيئة معادية .. وأهل متشككين ..

بطلتا الذي سنقبله دوماً ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه
هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصري ككل الشباب ..
اختر أن يبحث عن ذاته بعيداً وسط ادغال (الكامبيون) ، وفي
بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لا تنتهي في كل بقعة ..

وفي هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه
ذلك العالم العجيب الذي لم تنجح الحضارة في تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات الفتلة .. والسحرة المجانين ..
وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لا يمزحون ..
وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيينا للشباب كي يظل
حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبييًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتلقى قبراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

1- السحابة 9

إلى حد ما استقرت بي الحياة من جديد في (سافاري) ..
عانت قدامى المتعبدان في الحذاء القديم الأمين ، فشرعت برحلة
لا مثيل لها .. لا أنكر أن (كونيا) كانت حذاءً جديدًا ضيقًا
جعل أصابعي تتورم .. أقيم تعرفون أنني سأجرب حظي في
(لوغندا) وجنوب إفريقيا وعدد من بلدان القارة السوداء .. لكنني
في كل مرة سأعود إلى (أنجلواتيري) لتي أحببتها ولحبتني ..

كانت حياتي الآن تتحرك على محورين جانبيين : المحور
الأول هو اهتمامي للشغوف في الدراسة .. لا أعرف السبب
لكنني رحت أنهل المعلومات نهلاً كأنني أرض عانت الجفاف
كثيراً .. ومن جديد ساورني ذلك الشعور للخادع بأن الإجابة
على كل شيء توجد في الكتب ، وهو انطباع خاطئ طبعاً ،
لكنني أعرفه جيداً حينما أندمج في وهج التعلم .. حين تزيح
أعتقد المعلومات الستار عن أسرارها فتبدو السطور سهلة
كأنها كتاب القراءة الرشيدة .. حقاً لا أعرف سر هذه
الظاهرة العجيبة ولا سر تلك الشعلة المقدسة التي اشتعلت
في عقلي ، لكنني سعيد بها وأدعو الله أن تطول فترة
لا بأس بها ..

صرت أقضى الليل أو أكثره شاعراً بأننى جالس بين أيدى
السادة (لستر Lester) و(كوخ Koch) و(هالستد Halsted)
وسواهم .. أصفى لهم فى نهم .. مفضاً بالامتنان لأنهم
يعطون وقتهم من أجلى ..

المحور الثانى هو تقبلى النفسى لفكرة الأبوة .. كانت
(برنانت) العزيزة تمارس عملها فى البيت والعمل ، فلم
يتغير شيء .. لم يعلن الجنين عن وجوده بعد بانتفاخ فى
بطنها ، وكف عن طريقته القديمة الكنيية : القىء .. لقد
تقبل جسدها فكرة ذلك الجسم الدخيل واستسلم له ..

على أن أهم عامل فى حياتى كان تلك الفترة من الهدوء
النفسى والانتعاش الوقتى .. يطلق الأمريكان على هذه
الفترة اسم (المحابة 9) .. ولا أعرف لماذا هى تسمية ،
لكنها على كل حال تلخص الموقف .. وكما يقول الشاعر
العظيم (صلاح جاهين) فى رباعياته :

يا ترى أنا مت .. والا وصلت للقائمة ؟

لم يكلفنى (بارتلييه) بمهمة غامضة من مهمته ، ولم يتفك
وباء غمض فى الوحدة .. وبالتأكيد لم يغادر الموتى المشرحة
ليشاهدوا التلفزيون .. لقد بدأت أفهم كيف يمارس الأشخاص

الطبيعيون حياتهم .. أنت تعرف بالضبط ما سيحدث غداً وبعد
شهر لو ظلت حياً .. استيقاظ .. إفطار .. عمل .. غداء .. عمل ..
استنكار .. نوم ..

وخطابات !

نعم .. هناك الكثير منها كالعلة .. بعضها من الوطن وبعضها
من (كينيا) ، حيث الأصدقاء الذين اشتعلت صداقتي بهم
كالبراكين ، وهي الآن توشك على أن تخدم كالجليد ...

كنت علاقتي منتظمة بـ (شارل سينوريه) - مدير الوحدة
هناك الآن - عبر الخطابات ، وقد تجد شعوري السابق بأنه
من أقرب الناس إلى روحي في وحدات (سافاري) ، كما أنه
فيلسوف وفنان يمارس الطب .. حسن .. لا أعرف ما يقولون
عنه في وحدة (سافاري) في (كينيا) لكنني أوشك أن أرى
الإجابة : إنه مدير غير كفء .. لا يمكن أن يكون صاحب تلك
الصفات متمتعاً بمواهب إدارية .. إن الإدارة تتطلب المزيد
من النبروية وقدرًا أقل من التجرد .. الفلاسفة يجلسون في الظل
يتأملون ، بينما القادة يخرجون ليقودوا ..

كنت مراسلاتنا عن طريق البريد الإلكتروني ، تلك الطريقة
التي قضت على الخطاب التقليدي ذي الطابع والمظروف ..
هكذا لم يعد الرد على الخطاب طقسًا ، وإنما هو نشاط تمارسه
في أي وقت ..

تعالى يا (برنالت) وأصغ ..

إن هذا هو خطاب (سينوريه) الأخير ، وفيه يحكى لى عن قصة عجيبة عثها فى (كينيا) مع قبائل (توركنا Turkana) وهى ثلثة أهم قبائل (كينيا) بعد (المساي) ..

لما لم أر هذه القبائل ولم أؤمن أن أراها فكل ما سمعته عنها كليب ثليل على النفس ..

لكن (سينوريه) خاض مغامرة لا بأس بها .. ربما هى المغامرة للجيرة بأن أكون طرفاً فيها ، لكنى لم أكن هناك .. هذا متوقع ، فمهما كن حبى للمتاعب لا بد أن تحدث قصة أو ثلثتان فى القارة السوداء من نونى ..

إنه خطاب طويل جداً .. لهذا أرسله لى على عدة أجزاء .. فخرج أن تنتهى من عمل المنزل لروتينى أولاً .. الأطباق ؟ سأغسلها طبعاً .. ظننت هذا على منذ تزوجنا .. لكن ليس مصح الأرضية من فضك ، لأننى لا أعرف كيف يمارسون هذا العمل ، ولأننى لا أتصور نفسى أمارسه ..

هل فرغت يا عزيزتى ؟ تعالى إذن واجلسى جوارى ..

سأتلو عليك الخطاب ..

هزيرى علاء :

كتبت لك فى خطبى الأخير عن قنظلى لمجموعة من
المسولين النرويجيين .. والحقيقة أننى لم أكن على علم تام
بهدفهم من هذه الزيارة .. لأحب السكندنافيين عامة ، ولعل
المدير السابق (ستيجوود) له دور ما فى هذا .. يخيّل إلى أن
الطبيعة تطبع شخصية المرء ببصمة لا يمكن محوها ..
قبريطقيون بلاديون لا ينفطون .. هذا هو ما يحتمه طقس
بلادهم للعين .. كذلك هؤلاء القوم من شمال ، الذين يظفرون على
الرنجة ويتحملون البرد طيلة العام .. لهذا يكتسبون هذا الطابع
الجليدى البارد ثقيل الظل نوعاً .. لقد اعترف (سومرست ماوم
Somerset Maugham) بأنه لم يطلق قط مسرحيات النرويجى
(إبسن Ibsen) لأنها سخيصة ثقيلة الظل مملة ، وكنت صالحة
لنصرها لأكثر .. هذا شيء لم يجزوا أحد على الاعتراف به
بين المثقفين .. أما وقد قرأت هذا الاعتراف فباتنى لحبيه
ولرقص له طرباً ..

جاءت المجموعة إلى (سافلى) وعرفت أنهم خليط غريب
من الأطباء وخبراء تجميد الأسماك والأنثروبولوجيين ! كلا ..
لست مجنوناً .. إن الحقيقة هى ما قرأته أنت بالفعل والسبب
ستعرفه فيما بعد ..

قائد الفريق هو إدري نرويجي يدعى (تريجي كولفارد) ..
إنه اسم نرويجي جداً كما ترى يجعل الدم يتجمد في عروقك ..
وهو كذلك نرويجي جداً كما تراه في القصص المصورة ..

الشخص الذي التقى لهم في الفريق امرأة .. والمرأة مهمة يوماً
ولها ثقل يعرفه كل خبير في التصوير الفوتوغرافي .. إنها عالمة
(أنثروبولوجي Anthropology) تدعى (مارجريت جيرهاسن) ..
إنها تمثل بارد أشقر الشعر لمحاربي الشمال .. في الأربعين
من العمر على قدر من الجمال ، لكنها تغلفه بخشونة وعدد
لا بأس به من الأوردة النافرة ، وأتامل مكسوة بالتبغ ..

هناك أشخاص آخرون لن أصدع رأسك بهم ، وسوف يأتي
دور كل منهم في حينه ..

كان هناك الكثير من الكلام عن الهدف من قدومهم ،
لكنني خمنت على كل حال .. حين يرتبط النرويجيون مع
(كينيا) يكون السبب هو قبيلة (توركاتا) .. كل من يعمل
في القارة السوداء يعرف هذا ..

بعض هذه الأسباب أثبت أنه حقيقي ، والبعض الآخر
تبين فيما بعد .. كانت أسباباً عجيبة جدرة بأن أقصها
عليك .. وأعتقد أنك ستضحك طويلاً حين تسمع القصة
كاملة ، وإن كنت لن أضحك مثلك بالتأكيد ...

2- توركانا ..

عزيزى علاء :

كانوا ينتمون إلى منظمة (نوراد) ..

و(نوراد) إن كنت لاتعرف يا (علاء) هي منظمة نرويجية جعلت همها الأوجد مساعدة قبال (توركنا) للبسة على الحياة وعلى التحضر ..

كل هذا جميل .. لكن مادورى لنا ؟

قال لى (كولهارد) وهو يجلس فى مكتبى يضغط بلاتوقف على أزرار فى حاسبه الآلى النقال :

- « نحن نعمل من دون وحدة طبية ثابتة تدعمنا .. نحن بحاجة لمستشفى وأطباء ومختبرات .. »

- « عنكم منظمة لصحة عالمية .. وهى تملك الإمكانيات والمال .. إتهم أقدر على معونة برغوث فى القطب الشمالى لوراق لك التشبيه .. »

لم يتسم .. هذا هو دين النرويجيين ، وقال :

- « هم لا يريدون مساعدتنا .. إتهم مكتفون ذاتيا ولا يؤمنون بأهمية ما نقوم به .. »

ثم أشار إلى كئنه يتهمنى ، وقال :

« وحدة (سفاري) أكثر مرونة ويمكننا التعامل معها ..
إن لدينا الخبراء ولديكم الوحدة الطبية ووسائل النقل .. »

ثم أر ما يمنع .. إنهم مصممون ومن الواضح أنهم يعرفون
ما يقومون به .. ثم إنهم على استعداد لمدك تبرع لا بأس به
للوحدة ، وأنت تعرف أن التبرعات أمر ترحب به الوحدة في
كل وقت ..

هنا فقط فكرت فيك يا (علام) .. هذه الحملات تناسبك
أكثر من أى واحد آخر .. تتساقى (كليمنجارو) أو تتوغل
وسط الأحراش .. لا أستطيع أن تخيلك ثابتاً فى مكانك
متعطلاً .. لكنك للأسف لم تعد هنا .. من يدري ؟ ربما
لا نلتقى أبداً بعد هذا ..

وبدأت ترشيح الفريق المناسب وانتقيت بعض الأسماء ..
لكنهم كما هو واضح كانوا بحاجة إلى أحد الأطباء المنطلق
للحرة .. وكنت لنا مناسباً لأننى مختص بهذه الأمراض ،
بالإضافة إلى أننى رئيس الوحدة وأملك الكثير من الصلاحيات ..

استغرق الأمر بعض الوقت حتى أتعونى .. أعرف أنك
لا تحب التفاصيل الإدارية لهذا أن أصدع رأسك بها .. لكنى كنت

واضحاً في كلامي : لن أترك الوحدة أكثر من يومين .. سلاّهب
بشكل رمزي ، وبعد هذا فلنأخذ دولاّب العمل من تلقاء نفسه ..
ووكلت إدارة الوحدة إلى (جوتيه) .. إني أعرف أنه يملك
الكفاءة والرغبة ..

ما هي المهمة ؟

كل شيء في الواقع .. أنت تعرف أن قبيلة (توركوتا)
تعاني الفقر والبطالة ومشاكل الجفاف .. أضف لهذا أن
جميع أفرادها تقريباً مصابون بداء الحويصلات المائية
Hydatid cyst وهي كما يبدو عادة بذيلة لا ينوون للتخلي
عنها بسهولة ..

لا أنسى هنا أن أنكر مشاكلهم مع المراعى ، وهو
ما يؤرق النرويجيين .. فهم يؤمنون بأن الرعى يفسد
الأرض التي يتم عليها .. وهكذا لا تجدى نفعا حين يأتى
الجفاف على مناطق أخرى ، بينما القبيلة لا تكف عن
الترحال بأغنامها وأبقارها .. بالتالى هي تنشر الجذب حيثما
ذهبت كأنها تحمل لغة إغريقية ما ..

من الصعب أن تجد قبيلة جذيرة بالرعاية أكثر من هذه على
وجه الأرض ..

وبرغم أنى فى (سفاري) منذ سنوات لم أعد أفكرها ، فليتنى
لم أتعامل مع هذه القبيلة من قبل ..

كان الواجب ينادىنى فقبلت ..

من نافذة الطائرة رحت لرمق (كينيا) لتى لم أرها من السماء
منذ زمن بعيد ..

حفاً بلاد جميلة .. بكر كما يمكنك أن تفهم البكارة .. ليست
(لكونغو) طبعاً لكنها مازالت تحمل البصمت الأولى لتى يشتبهها
الغريبون من أمثالى ..

جوارى كانت تلك المرأة (جيرهاسن) .. بسيطة جداً فى
قميصها قصير الكمين والسروال الجينز .. أنفاسها تدل بوضوح
على أنها مدخنة من الطراز الثقيل .. هذا نمط شائع تعرفه أنت
بالتأكيد .. امرأة جافة أقرب للخشونة لابد أنها تكخن كمحرقة
للجثث .. كانت تلتقط الكثير من الصور بكاميرا أخرجتها من
حقبتها .. ولا تكف عن الكلام بقتروجية مع لصقاتها .. نسيت
أن أقول لك إنهم جميعاً يتكلمون الفرنسية ببراعة ..

سألتها وأنا اعتدل فى مقعدى :

« أول مرة لك فى كينيا ؟ »

.. « الخامسة .. »

قلت لها نون أن تنتظر لى ..

.. « ولول مرة مع (توركوتا) ؟ »

.. « الخامسة .. »

هذه امرأة مخضرمة إن .. تعرف الكثير عن هذه القبيلة ..

من بعد رأيت تلك البحيرة الضيقة .. أعترف بضغتي فى الجغرافيا .. لما أعرف أن هناك بحيرة كبرى هنا لكنى لا أعرف التفاصيل .. ربما نصبت اسمها أيضًا ..

أثرت الصمت كى لا أبدو خبيثًا .. المفروض أن هذا بلدى وكان يجب أن أقوم بمهمة الدليل لهم ..

إلا أن لحد الترويجيين ، وهو شاب نحيل أخضر لعود سلكنى فى حماسة :

.. « ما هذه البحيرة ؟ »

قلت للمرأة فى حدة وهى تواصل التقاط الصور :

.. « (توركوتا) .. »

هكذا أنقذت حياتى .. ويبدو أنها خمنت لكنى لا أعرف فواصلت شرحها بالفرنسية :

- « بحيرة (توركاتا) التي كنت تدعى بحيرة (رودلف Rudolf) سابقاً .. إنها تغطي شمال غربي (كينيا) .. يغذيها هذا النهر .. (لومو) .. هل تراه ؟ على ضفافها قامت حضارة عريقة جداً .. ولكن .. (حضارة) ليست الكلمة الصحيحة .. لتقل (أقدم حياة) .. لقد برهنت أبحاث الحمض النووي DNA على أن هذه الأقدام قبيلة بدائية في العالم .. »

بدأت أفهم .. لهذا تتواجد عالمة أنثروبولوجية وسط فريق السيرك هذا .. سمعت عن هذا الموضوع من قبل ، لكن التواجد مع خبيرة في علم الأجناس سيضيف لخبراتي الكثير ..

انحدرت للطائرة لمستوى لآكل فاستطعنا أن نرى التماسيح غافية - بسبب الحر - على الضفاف .. لا تصدق أنها بهذه الكثرة .. يمكنك أن تفترض أنها جذوع أشجار جافة على الضفتين .. وتصاعدت شهقات المنبهرين ...

هناك أفراس نهر لا يبدو منها إلا أنوفها .. ولكن البحيرة عالمة توحى بالقذارة .. هي أقرب إلى بركة أسنة تظفو هناك في الشمس ..

الآن نمتد أمامنا الصحراء الكليية .. الصحراء الرهيبة ..

المكان الذي يبدو كالبحيم بالنسبة لنا ، لكنه المكان الذي يطلق عليه للرجل من (توركاتا) كلمة (بيتى) ..

من فوق رأينا مجموعة من القبدو .. بدو يختلفون طبقاً عن بدو المنطقة العربية .. وكانوا يراقبون الطائرة في برود .. تعلمت على أنه لم يخلق بعد البدائي الذي لا يلوح للطائرة وهي تهبط لو كان رآها من قبل ، أما هؤلاء فكنا يتصرفون بلامبالاة غريبة من نوعها .. وعرفت أننا قريبون من عاصمة هؤلاء القوم .. قرية تصب فيها عشرون كوخاً اسمها (لودوار) .. أما هذه القرية فتعتبر صاحبة واسمها (كاكوما) ، وبها سبعة أكواخ ..

هناك قرى أخرى مهمة مثل (لوكتشوكيو) و(لوكتشيل) و(إليا) .. ومن الواضح أننا سنزورها جميعاً فيما بعد .. بدأت الطائرة تهبط محدثة سحابة مريضة من الرمال ، لكنهم لم يكلفوا خاطرهم بإغماض العيون ..

ثم إننا نزلنا .. مشى (كولفارد) نحوهم وحياتهم ملوحة بيده .. ثم بدأ حديثاً طويلاً معهم لم أفهم منه شيئاً ، وإن أركت فيما بعد أنه باللغة النيلية Nilotic التي يتكلمونها ويجيدونها ..

إن قبيلة (توركنا) التي يبلغ عددها 350 ألفاً جاءت من السودان أصلاً .. وما زال بعض أفرادها موجودين في جنوب السودان وشرقي (أوغندا) وشمال (كينيا) حيث نحن الآن .. هذه مجموعة من القبائل يطلق عليها اسم (النيلية) لأنها جاءت من حول النيل أصلاً ..

هكذا تحرك الجميع .. مشينا فوق الرمال الحارقة بضعة أمتار ، وفي النهاية استطعنا أن نرى تلك القرية الغريبة التي رأيناها من أعلى وكان تلك الصحراء تطل عليها .. إنها في منخفض عتيق نوعاً ..

هذا ولد .. والوالد قريب من طريق وعر غير ممهد .. وثمة لافتة بالفرنسية تقول (مقبرة السائقين المتهورين) .. غريب أن تجد هذه اللافتة هنا ، لكنني عرفت أن هذا الولد يلتهم كل السيارات المسرعة التي تكشف فجأة أن هناك منخفضاً .. هكذا تنقلب السيارة بلا إنذار .

كان عددهم قليلاً .. ثمة فكر علم واضح هنا .. بصعوبة يمكن أن تتبين للرجال من النساء .. إن الرجال أجمل وأكثر رقة من النساء حيث تعتبرهن نساء لمجرد الدقة التشريحية واللغوية لا أكثر .. ولاحظت أن بطون هؤلاء القوم كبيرة في الغالب كأنهم يعتنون استمقاء علماً ..

هناك أطفال يتصارعون ، وكلاب تتبحر .. الغريب أن حال هذه الكلاب كان أفضل من البشر ..

اتجه (كولفارد) في ثقة وسط القوم إلى رجل متقدم في السن ، يقف على ساق واحدة ويرمقنا في حدة ، مفضنا عيناً واحدة على سبيل التركيز ..

لا تحتاج إلى فهم اللغة كي تدرك أن هذا هو الزعيم لهذه
القرية .. عار تقريباً ما عدا قطعاً من صوف الأغنام وجلود البقر
وضعها فوق العورات .. ثمة عظمة تخترق شفته السفلى ليسو
أجمل ، وقطعة من الصلك - الأثر الوحيد للحديد هنا - يخرسها
غرساً في لحم فروة الرأس ..

كنت أعرف هذه العادة وأخلك لا تعرفها .. إنها - حسب لقواعد
الطبية هنا - أضمن وسيلة لطرد القمل من الرأس .. والسبب
كما هو واضح هو أن هؤلاء القوم لا يستحمون أبداً ..
لا أحسب السبب هو القذارة ولكن ندرة الماء ...

بالإضافة لهذا كان يملك أكبر بطن في القرية .. بطن إن أقول
إنها كنت تنكح لتلامس الأرض ، حتى لا تتهمني بالمبالغة ..

قلت لي (مارجريت) وهي تتأبط ذراعي بحركة تلقائية :

- « هذا هو الزعيم .. (كويكو لاجا) .. إنه رجل أسطوري .. »

نظرت له في حيرة وهمسست في أذنها :

- « واضح .. تصوري أنني عشت في هذا البلد دهرًا ولم

أعرف قط أن هناك بدائيين بهذا الشكل .. »

- « هذا هو السحر المميز لهم .. اخترع البدائية ولن يبقى

منهم شيء .. »

ثم بدا عليها بعض الضيق وأردفت :

« المشكلة أن هذه مهمتنا بالضبط .. أن ننزع منهم سحرهم البدائي .. »

كان الرجلان القلaman من حضارتين متباعتين أشد التباعد يتملحان الآن .. الزعيم يضحك مطوحاً رأسه إلى الوراء .. يمكنك أن ترى أن أكثر أسنانه تم اقتزاعها .. وفي هذه المرة لم أخجل من أن أعلل على النرويجية استفهم منها عن سر هذه الأسنان الغريبة ..

قلت هامسة :

« الكزاز (التيتانوس Tetanus) .. إن المرض متفش هنا .. ولما كانت أهم علامات الكزاز تقلص الفكين بحيث يستحيل فتح الفم ، فقد تحليل القوم بهذه الحيلة .. إن المرء منهم يصاب بالكزاز لكن أسنانه المنترعة تسمح بإدخال اللبن والماء إلى فمه المطبق .. »

فهمت وتكررت عادة ممثلة لدى قبائل الماساي Masai التي تعلمت معها كثيراً .. ثم إن هذه الطريقة تجعل جماجم هؤلاء القوم شبه مختومة .. يمكنك أن تتعرفها في أي مكان ..

وبالفعل نظرت من حولى فوجدت أن هذه العادات موجودة لدى كل القوم للموجودين ..

إلى دار الزعيم اتجهنا ، و(دار الزعيم) عبارة فضفاضة لأن داره عبارة عن قطعة من جلد الماشية معلقة بين عصوين خشبيتين .. وقد جاءت امرأة تحمل جرة مليئة بمائل ما .. كانت مرتبكة خائفة وأسقطت بعض ذلك المائل على الأرض ، فصاح الزعيم يجرها .. بل إنه صفعها أمامنا .. سقطت أرضاً فوجه ركلة ممتازة إلى كليتها ...

لم نحاول التدخل في هذه الشؤون العقلية ، لكننا شربنا ذلك المزيج لكريه في تقزز .. إنه لبن ممزوج بالعسل على الأرجح .. قدم النرويجي للزعيم كيساً من الخيش ، فتحه هذا الأخير فأخرج بعض الطباقي ، ثم راح يمضغه في تلذذ وهو يصفى لمحدثه .. ومن حين لآخر يبصق بصقة كبيرة .. هذه أمور هامة هنا .. الكل يبصق .. والسبب أن الكل يمضغ الطباقي طيلة الوقت ..

ثم إن (كولفارد) فاز بقبضة أخرى من الطباقي ، فلم يتردد .. نسها بين شفتيه وراح يمضغ هو الآخر ..

كان الزعيم يشير إلى خيمة أخرى ويتكلم .. يشير ويتكلم ..

استدار لي (كولفارد) وقال باسمًا :

- « زوجة الزعيم الرابعة مريضة .. اعتقد أن دورك في

الموضوع قد حان .. »

كنت أتسائل فى سرى : كيف لا يمرض إسمان فى هذا المناخ ؟ سيكون الشاذ والغريب ألا تمرض ..

اتجه نحوى رجل نحيل أعرج يتوكأ على عصا .. وراح يثب وثباً وهو يقتلنى إلى خيمة مكشوفة أخرى .. تخيل غرفة بلا جدران وإنما لها سقف فقط .. لفظة (خصوصية) لا وجود لها فى قاموس (توركاتا) ..

تحت السقف المصنوع من جلد العشيرة كتبت امرأة راقدة .. روجة الزعيم طبعاً فلا بد أنها فى قمة هنتتها الأنثوية ولناقتها .. بالفعل كنت على حق .. المزيد من السلك فى رأسها الحليق ورائحة كريهة أشد من رائحة الزعيم ذاته ..

كان معى ممرضتان من وحدة (سافارى) وطبيب يونانى شاب يدعى (ميكوس شىء ما) ، ففقت بفحص المرأة بدقة .. فحص من دون أن أسمع حرفاً عن تاريخ الحالة طبعاً ..

لا شك فى أنها تعاني صدمة عنيفة .. للتبض السريع المضطرب وضغط الدم المنخفض .. لكن ما السبب ؟ لا أرى قرأاً للتزلف من أية فتحة من فتحات جسدها .. هى لا تعاني جفافاً برغم حرارة الجو التى تجاوزت 47 درجة مئوية .. هل هو قلبها ؟

كان الطبيب الشاب يصفى بعناية ، ثم نزع السماعة من أذنيه
وناولتى إياه وقال فى اهتمام :

- « هلا أصغيت يا سيدى ؟ »

لمست السماعة فى أذنى وأصغيت لمست صغيراً .. إن
شعبها متقلصة تماماً ..

هنا التمت الفكرة فى ذهنى .. هكذا يأتى الإلهام فجأة ..
لا فضل لك فيه بل هو هبة ربانية تلتى لو لا تلتى .. فصحت
فى حماسة :

- « هذه صدمة حساسية anaphylactic shock .. لا شك فى
هذا ! أعطها بعض (الكورتيزون) والكثير من السوائل
الوريدية .. »

قال فى حيرة :

- « صدمة حساسية ؟ ولكن من أى شىء ؟ »

- « وكيف لى أن أعرف ؟ لقد حبتها أولاً ثم حاول الفهم ..
أعطها بعض (الإبينفرين) تحت الجلد كذلك .. »

وجلست على الرمال جوارها أنتظر نتيجة ما تقوم به ..

بعد نصف ساعة أبركت لأنها لا تتحسن ..

على أن شيئاً غريباً حدث في هذه اللحظة ، فقد أخطأ الطبيب الشاب ونطق عبارة ما باليونانية .. هنا .. كأنه السحر .. نبت الحديقة في القوم .. نهضوا وراحوا ينكرون بعضهم ، ويتسللون للضربات على الكتفين .. وسمعت لفظة تتردد بالحاح :

« إيموسوكوت لوكينجارين ا إيموسوكوت لوكينجارين ! »

« إيموسوكوت لوكينجارين ا إيموسوكوت لوكينجارين ! »

نظرت للفتى بغيا ونظر لي ببلاهة .. لابد أنه يبدو مثل أحد أسنانهم أو شيء من هذا القبيل .. في قصة (للعالم المفقود Lost world) لـ (كونان دويل Doyle) قهر المتوحشون بمنظر البروفيسور (تشانجر) لأنه يبدو كقرود ضخم غاضب وعبدوه .. لابد أن هذا الموقف يتكرر بشكل ما هنا ..

على كل حال يمكن فهم هذه التفاصيل فيما بعد ..

نهضت مسرعاً إلى حيث كان (كولفارد) مع الزعيم ، وقلت له إن الضرورة تحتم نقل هذه المرأة إلى وحدة (مسافري) .. فلا أضمن حياتها خلال ساعتين من الآن ..

عاد يتبادل الحديث مع الزعيم .. ثم التفت لي وقال :

« إنه يضربهن دائماً .. »

- « من هن ؟ »

- « زوجته لست .. يقول إن الرجل الجيد يجب أن يضرب

زوجته .. »

قلت في غيظ :

- « لاشأن لي بنظرتي إلى المرأة .. لكن هذه المرأة

لا تعاني نزفاً داخلياً .. لم تهتك ضربته طحلها لو كنت تفكر

في هذا .. إنها تعاني حساسية مفرطة جراء شيء ما ،

ولا أستبعد أن تكون قد لدغت من كائن لا أعرفه .. فقط لابد

أن تذهب إلى (سفاري) .. »

عاد يتكلم مع الزعيم ، ثم قال لي :

- « يقول إنه لا يريد فقدانها .. فقد كلفتها خمسة عشر جملًا »

- « قل له إنني أحافظ على رأس ماله ! »

ثمة قصة حقيقية حكاها (جيفري جورد Gorer) في كتابه

الشهير (إفريقيا ترقص Africa dances) .. يقول إن مبشرًا

هولنديًا أصيبت زوجته بالمرض ، وكان لديه خادمان أمينان

من أكلة لحوم البشر المهذبين .. اضطر إلى السفر وعهد

للخادمين بزوجته .. بعد أسبوع عاد فلم يجد زوجته .. لكن

الخاضعين قديما له - فى فخر وكبرياء - مبلغا من المال هو ثمن المرأة .. لقد شعر الرجلان الأمتنان أن الزوجة ستموت حتماً ولن يفيد منها زوجها ، لذا قلما يقتلها ويأعيا لحمها لأهل القرية ، والآخر ما حصلنا عليه من مال للزوج لدى عودته .. هكذا حفظا للزوج السعيد حقه ، ولم يخسر مليماً من زوجته !
إنه تصرف يدل على أمة شديدة ، ولابد أن الرجلين دهشا لأن الزوج لم يكافلهما ..

هذا التصرف أيضاً يدلنا على نظرة هؤلاء البدائيين للمرأة .. باعتبارها استثماراً يجب الاستفادة منه ، مثلها مثل لية بقرة أو رأس ماشية ..

على كل حال ففتح الزعيم بمنطقى لنفسى - وهو شىء صعب جداً كما ستعرف فيما بعد - ووافق على أن تنقل الزوجة إلى الطائفة ..

وأقلت للطائفة عقدة إلى (مسافرى) .. لكن كان على أن أبقى هنا لأن عملنا لم يبدأ بعد ..

3- لكننا نكره السمك !

مزيكى هلاء !

كان التوركتيون يحيطون بالطبيب اليونانى الشاب الذى كان فى لسوا حل من الرعب .. ونا منى ليمسكنى فى هلع عن معنى هذا .. هل يبدو لحمه من النوع الممتاز الذى يتوقون إليه ؟

نظرت إلى الخبيرة (جيرهاسن) مستغيثاً فرأيته تتأمل المشهد باهتمام .. ثم قالت لى وهى تضحك :

.. « إيه يوناتى ! إن حظنا عظيم ! لورتهنا الأمر بغاية لما قللنا بهذا التوفيق .. »

مائلتها مقلظاً :

.. « ساكون شاكراً لو أوضحت لى سبب روعة حظنا .. »

قالت دون أن تهتم بغيطى :

.. « هؤلاء القوم يعتقدون بأنهم أحفاد الإسكندر الأكبر المقدونى ! »

.. « عظيم ! للتشابه الأسرى شديد حقاً ! »

- « لنا لا مزح .. لقد جاءهم الإسكندر الأكبر في الماضي
 السحق .. قبهروا به وحاول أن ينظم لهم حريتهم .. في الحقيقة
 عبده باعتبارهم إلهاً أبيض لا يقهر أنت به الملائكة .. غسلوا
 جسده بثلثين على سبيل التكريم ، وأطلقوا عليه عدة أسماء منها
 (إيموسوكوت لوكينجارين) أو (لونجور كيلى) - ومعناها
 (الرجل ذو الأسنان السوداء) - أو (إكينجارينان) - ومعناها
 (الذي يساعنا) - وهم يعتقدون أن الإسكندر تزوج واحدة
 من جداتهم .. أنجبت للمرأة طفلاً أبيض وطفلاً أسود .. طبقاً
 جاءوا هم من الطفل الأسود .. وهذا يعطيهم نوعاً من الفخر
 قائم .. إنهم من سلالة الإسكندر على عكس باقي الأقارعة ..
 وهم يعتقدون أن ما يلعبه حول عنقه ومعصميه هو ذات
 ما يلعبون .. »

- « ولهذا يعتبرون أي شخص يوناني ضيفاً قوياً العادة ..
 ولكن هل يعرفون اللغة اليونانية حين يسمعونها ؟ »

- « بالطبع .. هم لم ينسوا كلام الإسكندر بعد كل هذه القرون .. »

كان الإسكندر الأكبر مثل (بونابرت) - مواطناً - يعرف كيف
 يستغل الدين للوصول إلى ما يريد .. الأول اندمج في عقائد كل
 شعب زاره في مصر وفي قلب إفريقيا .. والتقى تظاهر بالإسلام ..

وفي الحالتين كنت لنتيجة مفيدة استحصارياً بما لا يقاس .. بينما
برهن كل مستعمر بصطلم بالدين على أنه يحفر قبره بيده ..
من المثير هنا أن نتذكر أن (بونايرت) كان شديد الإعجاب
بالإسكندر الأكبر ، ودرس أساليبه بعنى .

تجهنا إلى المجلس الذى أقامه زعيمنا النرويجى لزعيم
القرية .. هناك كانوا يتجادلون فى أمور كثيرة .. طبعاً لم
أنهم حرفاً لكن الزعيم الإفريقى لم يبد راضياً ...

قررت أن أزجى الوقت بالتقاط بعض الصور ، فأخرجت
الكاميرا الممتازة التى أعتر بها كثيراً و ...

لا أعرف ما حدث ولا من الوغد الذى ركل يدي التى تحمل
الكاميرا فطار منها إلى الرمال .. نظرت للوراء فى عذوبة
فوجدت أنه ذلك الرجل الأعرج الذى كان يرافقنا ، وقد أطار
الكاميرا بالعكز الذى يحمله ..

قالت لى (جيرهاسن) وقد رأت تحظى :

« هم يكرهون لتصوير الفوتوغرافى ولا يطيقون لغرياء ..

يعتقدون أن الكاميرا تخطف أرواحهم .. »

« لكنك التقطت الكثير من الصور .. »

- « لأنهم يعرفوننى .. لكن قد تكون أنت ساحراً خطيراً .. »

هكذا تخلّيت عن الكاميرا ، وإن ظلت أرمقها فى حجرة مدفونة فى قرمال .. أدعو الله ألا تكون قد تهشمت .. إنها باهظة الثمن أو كذلك بالنسبة لى على الأقل ..

كانت المناقشة حامية ، لكنى لم أفهم حرفاً ..

فى النهاية نهض الزعيم (كوبكو لاجا) فى حماس وأشار لأحد الرجال ليرعان ما جاءت مجموعة من الجمال .. وفهمت أننا سننتقل لمكان ما ..

طبعاً لست خير من يركب الجمال ، واعتقد أنها خبرة مرعبة ، لكن المرأة الصخرية لم تطلق صرخة واحدة بينما لجمال البارك ينهض متأرجحاً بها ، لذا كتمت صرخاتى وأغمضت عيني وتمسكت بالطبيب اليونانى الذى جلس لملى ..

أخيراً راحت سفن الصحراء المرهقة للعظام تتقدم ببطء نحو الألفى ..

هل هذا سراب ؟ تلك البحيرة وسط الصحراء ؟

لا .. إنها بحيرة (توركنا) التى رأيناها من الطائرة .. الآن نراها عن كثب وبشكل أفضل .. لم أفس أنها تعج بالتمسيح لكن هؤلاء القوم يعرفون ما يفعلون ..

المشهد الغريب هنا هو أن هذه البحيرة رلكدة المياه جدًا ..
كلما هي مصرف للمياه .. والمشهد الأغرب الذي لم أتبينه من
الجو ، ولم أتبينه إلا حين ننونا أكثر هو تلك السفينة الصالحة
الجاتحة في وسط البحيرة .. مفروسة في الطين حتى
المنتصف ...

كانت هناك عدة قوارب مقلوبة .. قوارب يبدو أنها كانت
متقنة الصنع ، وقد كتبت عليها كلمات ما بحروف لاتينية ..
هناك شبك ممزقة ملقاة هنا وهناك ..

ومن بعد كان هناك تمسحان يتسلقان بتعزيق شبكة وحاول
كل منهما التزاعها من أنياب الآخر ..

الخلاصة : كانت هذه لبعض مصيدة أسماك رأيتها في حياتي ..
بركت الجمال فترجلنا .. كنت أحاول بصعوبة أن ألقف
على سائلي اللتين تحولتا إلى عش نمل ..

فدماى تتفرسنان في الرمال .. أحاول التماسك .. أمشي ...
وقلت لى (مارجريت) وهى تنن مما جعلتى أشعر بأنها حية
نوعاً .. إنها ليست (روبوتا) بعد كل شيء :

- « هذا هو ما تبلى من مشروع (نوراد) للضخم .. »

- « مشروع ماذا بالضبط ؟ »

- « مشروع مصنع تعبئة (تورككتا) ! »

★ ★ ★

يعتبر مشروع (تورك) مضرب للمثل في حملة منظمات
المساعدة الدولية أحياناً ..

لقد أراد الترويجيون أن يقدموا خدمة لهذه القبائل .. بالإضافة
إلى إيمانهم التام بأن للرعى يتلف التربة .. إن قبيلة
(تورككتا) كثيرة التنقل مع مواشها .. وهكذا تنتقل من أرض
خصبة لأخرى كي تقضى على الأخضر فيها ثم تتركها .. وهذا
يجعل الأرض عاجزة عن الانتعاش بعد وقت الجفاف ..
ما هي خبرة الترويج التي يمكن أن تقدمها لهذه القبائل ؟ طبعا
الأسماك .. لأن السمك هو عصب حياة الترويج ..

هنا خطرت لأحد العباقرة فكرة استغلال الثروة السمكية
في بحيرة (تورككتا) .. إن البحيرة تحوى أسماك فرخ النيل
والتيلابيا .. والسمك لا يرعى ولا يتلف الحقول ..

سنحول التورككتا من رعاة إلى صيادين !

(*) على سبيل التذكير .. كل المعلومات هنا حقيقية ..

عام 1971 جاءت بعثة لتدريب الأهلى .. ثم زودوهم
بضربين قارباً للصيد .. أطلق على المشروع مليوناً دولار ..
وكانت التكاليف مروعة بالإضافة إلى الحاجة لتوليد كهرباء
تتشغل ثلاجات السمك فى وسط الصحراء ..

ولم يعبأ أحد بتدريب الأهلى العراة :

- « لكننا لا نحب السمك ! »

- « مستحبونه يا حمقى ! »

وعمل الأهلى بالسفينة فى مشروع الأسماك هذا .. كانوا
يكرهون العمل بشدة ويطلقون على البحيرة اسم (أمقا إيمويت)
أى (أرض العدو) !

ثم جاءت الكارثة لتضرب الترويجيين فى أسنتهم حين جف
نهر (أومو) ففاضت مياه البحيرة ، وهكذا ماتت الأسماك
وانتشرت التماسيح وعلفت السفينة الترويجية وسط البحيرة ..

هنا فقط ترك (توركيا) البحيرة وعلموا لمواشيهم الحبية ..

وقالت لى الترويجية :

- « مهمة هذه البعثة هى إعادة إحياء المشروع .. نتفاوض

مع هؤلاء القوم .. نقدم لهم المعونات والعلاج الطبى ..

نناقش الموضوع .. »

- « لكن الفكرة أثبتت بلاحتها .. »

- « نحن نريد إعادة التجربة عند نهر (توركويل) .. هذا
النهر يفيض ثلاثة أشهر ويجف أربعة .. سوف نحصل على
الأيدى العاملة وقت الفيضان .. »

هكذا بدأت ألهم هذا الخليط العجيب الذي تتكون منه
مجموعتنا ..

لكن الفكرة لن تنجح .. حتماً لن تنجح .. وجوه هؤلاء
القوم الخشنة الصارمة تدل على الفضل القاييم ..

★ ★ ★

4 = مسح طبي ..

عزيزي علاء :

في المساء اضطررت إلى استقلال الطائرة عائداً إلى
(سافري) .. كنت هناك مشكلة ما تسدعي وجودي ولم يستطع
مساعدى اتخاذ قرار ..

وعرفت أن النرويجيين سيقومون في هذه القرية الغريبة ،
مما جعلنى أغبط نفسى على حسن حظى .. هنا فقط ترهب
بمصائب الفصل ..

بعد ما فرغت من تلك المشكلة الإدارية ، تذكرت للمرأة
التي أرسلتها هنا في الصباح .. الزوجة للمصابة بصدمة ..
سألت عنها وأنا أتوقع أن يقولوا إنها ماتت ، لكن الأطباء
قالوا في مرح إنها تتحسن وإنها في غرفة الجراحة الآن ..

هاتف أحدهم وهو يلوح بفيلم موجات فوق صوتية :

« هل تعرف ما وجدناه ؟ حويصلة مائية في بطنها وقد
تفجرت ! »

هكذا اتضحت القصة .. إن انفجار هذه الحويصلات داخل

الجسم البشري كما تعلم بسبب صدمة حسابية شديدة .. لكن
هذا في حد ذاته كلثة على المدى البعيد ..

هذا الحيوان زوجها وجه لها ركلة في المكان
الاستراتيجي بالضبط .. فجر بالوثأ مليناً بالمسائل للقاتل داخل
بطنها .. حتى على المستوى الاقتصادي هذا ليس تصرفاً حكيمًا ،
فلا أحد يركل بقرته بهذا الطنف .. لكن القصة كذلك ، وهي
واضحة .. وهذا هو سبب كلامه عن ضرب الزوجات حين نقصنا
زوجته .. لقد ربط بين الحادثين وهو محق على كل حال ..

كنت لهم ولنا أوجه إلى قسم الجراحة :

- « هلا بدأنتم عطار (ألبندازول Albendazole) ؟ »

- « بدأننا يا سيدي حتى قبل الجراحة .. »

انترعت سترتي وبدأت ألبس ثياباً معقمة .. طبقاً لم
تعليم ولكن ارتكبت مايسمح لي بدخول غرفة الجراحة .. ثم
دخلت الحجرة ووقفت الصق أنفي للمغطى بالقتاع بكثف
الجراح ..

هناك كان الجراح الأكملي (شروبر) يعمل في بطن المرأة ..

كنت للموضي ضاربة لثيابها بالداخل .. لقد أغرقت الحويصلة

كل شيء من حولها .. هذا السؤال للمعيت .. كان يقوم بالكثير
من الفصيل والشلط محاولاً أن يقلل الضرر قدر الإمكان ..

شعر بي من خلفه ، فقال دون أن ينظر للوراء :

- « مرحباً يا ريس .. »

- « هل ضغط الدم مستقر ؟ »

- « أعتقد هذا .. إن الدم ينزف جيداً .. »

ثم أشار لى إلى المصاريف حيث استقرت عدة حويصلات
منتفخة كنبية المنظر .. وقال :

- « يجب أن ننتزع هذه أيضاً .. »

فكث له مفسراً :

- « المرأة من قبيلة (توركنا) .. »

- « عرفت هذا .. كل أفراد هذه القبيلة مصابون بالداء ..

إلى السيتريميد .. »

ناولته الممرضة حقناً ، فبدأ يمارس الطقوس المعتادة فى
هذه الأمور .. يثقب الحويصلة .. يشلط بعض ما فيها من
سائل .. يحقن السيتريميد .. ينتظر عشر دقائق حتى يقتل

السؤال كل الحويصلات الصغيرة المسبحة فى الحويصلة الأم ..
ثم يبدأ فى قتراع الحويصلة ببراعته الجراحية .. هذا هو أسلوب
PAIR أو الحروف الأولى من (التثقب - الشلط - الحتن -
الاستئصال) ..

قال لى وهو يواصل عمله مع حويصلة أخرى :

- « هناك حويصلات أخرى فى الكبد .. سأفعل ما أفكر عليه ،
لكن لابد من مظلة كاملة من عطار (ألبندازول) .. »
- « بدأتنا بالفعل .. سنحشوها بهذا العطار حتى تختفى .. »
وغلزت غرفة الجراحة ، ولما أجفأ عرقى .. لحسن حظ
المرأة لئن كنت ذكياً وأن الجراح كان بارعاً وأن الترويضيين
وصلوا فى الوقت المناسب ...

ان يلفد (كويكو لاجا) ماله على كل حال ..

★ ★ ★

هذا الجزء لم يكتبه لى (سينوريه) طبعاً ، لكنى شعرت بأنه
ضرورى للقارئ غير المتخصص كى يفهم عن أى شىء نتكلم
بالتضبط .. وطبعاً يمكن لمن لا يهتم بالتفاصيل أن يثب إلى الجزء
التالى .. هذا ان يضايقتى بالطبع ..

من بين قبال المعلم ، تعتبر قهولة (توركنا) هي متحف
مرض الحويصلات المائية Hydatid cysts وهو مرض يعرفه
كل من جاء من مجتمع رعوى .. إنها ثلاثية (ماشية - بشر -
كلاب) ..

لن نحب منظر الدودة التي تسبب هذا المرض .. إنها تبدو
كمصاصي الدماء أو الكوليريس .. دودة شريطية هي صغيرة
الحجم جداً ..

هذه الدودة تعيش دورة حياة معقدة من تلك المصورة في
أي كتاب أحياء رأيت في المدرسة .. تعيش في أمعاء الكلاب ..
تبيض .. ينزل بيضها مع البراز ليختلط بالعشب .. تكلله
الماشية .. تجد طريقها إلى عضلات الماشية وأعضائها
لتكون تلك الحويصلات اللينة .. سوف تطلق الدودة حين
يلتهم الكلب هذه القطع من الماشية ..

ولكن ما نخل الإنسان في الموضوع ؟

الحقيقة أن كثيراً من الآفات يكون حظها أسود بقدر
ما يكون حظ الإنسان الذي يتعامل معها أسود .. وقد لاحظ
الدكتور (زنسر) أن الإنسان هو الذي ينقل التيفوس إلى
القملة تصمة الحظ التي تتغذى عليه ، فلابد أن مدروس القمل

لتصبح بالتخلص من الإنسان ومخالفته بالمبيدات لأنه للخطر
الأكبر على صحة القملة السعيدة .. بالمثل تلقى ألفت كثيرة
نهلية نورة حيتها لو اعترض طريقها إيمان ..

في حالتنا هذه يلعب الإنسان دور الماشية .. وفلك حينما
يلتهم طعامًا تكوث بالضلالات للكلاب .. وكما هو واضح فهذا ليس
في مصحلة الدودة لأنه طريق مسدود في نورة حيتها ،
ما لم يلتهم للكلب إنسانًا طبعًا .. لو يلتهم الإنسان إنسانًا ..

لكن بعيدًا عن هذه الخواطر الكتيبلية ، تستقر البيضة في
أمعاء الإنسان .. وهنا تبدأ نورتها المغيلة ..

تتحرر منها كائنات شيطانية صغيرة تغادر الأمعاء وتستقر
في عضو من أعضاء المريض .. في ثلاثة أرباع الحالات تفضل
الكبد .. أحيانًا تفضل الرنتين أو للمخ أو العظام .. وهناك
تتكون الحويصلة المائية ..

إن الحويصلة المائية منظرًا مميزًا خاصة في الرئة ، يعرفه
الأطباء وقد وصلوه قديمًا باسم (زهور السوسن على ماء
البحيرة Lily on lake) .. هذا تشبيه آخر من تلك التشبيهات
الطبية للشاعرية ..

كما هو واضح فإن الحويصلة المائية حويصلة .. غشاء

على الماء .. مشكلة هذا الماء أن انفجاره يحدث صدمة
حساسية شديدة قاتلة غالباً ، والمشكلة الأهم أنه يحوى
حويصلات صغيرة للندوة تشبه الرمال .. سوف تستقر هذه
الحويصلات على أعضاء أخرى وتبدأ الدورة الخطيرة ..
وفي هذه النقطة تتصرف الحويصلة المائية كالمرطبان الذى
تفصل خلاياه لتثبت نفسها على أعضاء أخرى وتتقسم ..

الآن يمكننا فهم الإجراء الذى قام به الجراح قبل اقتراح
الحويصلة .. لقد حقنها بمادة (السيتريميد) كى يقتل
الحويصلات الوليدة .. وبهذا يحتاط لانفجارها أثناء محاولة
استئصالها ، وهو ما يعنى هلاك المريض على الأرجح ..

هناك نوعان من داء الحويصلة المائية : النوع الأول
الذى تنقله الكلاب وفيه توجد الحويصلات الصغيرة داخل
اللسان .. النوع الثانى تنقله الثعالب وفيه توجد الحويصلات
الوليدة خارج الحويصلة الأم .. وهذا يعنى خطراً لاشك
فيه .. لكن هذا النوع الأخير ليس فى (كينيا) لحسن
الحظ .. ليس فى أى بلد عربى كذلك ..

مع تطور الطب صار من الممكن أن يساعد علم الطفيليات
الجراحة ، وفى حالات معينة يمكن للعلاج الطبى أن يقتل

الحويصلة حتى تنكس .. ومن البداهة أن العلاج الطبي هو الحل الوحيد بالنسبة لذلك النوع الخبيث الذي تنقله الثعالب ..

بقى أن أقول إن المرض ليس بعيداً لهذا الحد .. القطر
عربية كثيرة تعرفه ، وخاصة تلك التي تملك ثروات حيوانية
كبيرة أو يمثل القرع أهمية اقتصادية فيها .. فتش بعينيك
حيث تجد ماشية وكلاباً يعيشون جوار البشر ، وسوف تجد
أن تلك الدودة اللعينة قريبة جداً ...

وبقى كذلك أن أقول إن قبيلة (توركاتا) تعاني كلها
تقريباً من هذا الداء .. بل تعد لبطن المنتفخة من علامات عظم
الشان فيها ..

نعود إلى خطابات (سينوريه) ..

في الصباح الباكر انطلقت بنا الهليوكوبتر من جديد فاصدة
أرض (توركاتا) ...

هذه المرة كنت عندي أخبار طيبة عن الزوجة ، وخطة عامة
صا يمكن عمله هنا .. من الممتع أن تعرف أن لك قيمة
ما في مكان ما .. لا أعيا كثيراً بموضوع تطيب الأسماع

هذا ولا أقول شيئاً عن (الأنثروبولوجي) ، لكنني أعرف كل شيء
عن الحويصلات المائية والكززال .. يسعى أن أعين هؤلاء القوم ..
هبطت الطائرة وسط الرمال هذه المرة خارج القرية
بالضبط ، وأمكنني للمرة الأولى أن ألاحظ تكوينها الغريب ..
إن أكوامها موزعة على شكل دائرة .. ومن الواضح أن
هذا التكوين لم يأت اعتباطاً لكن ما الغرض منه ؟

استقبلنا الترويجيون ووضح من ثيابهم المبعثرة وعيونهم
المنتفخة أن الليلة كانت سوداء .. كيف لا تكون سوداء
وكنت تمضيها في الصحراء في خيمة ليست سوى سقف
من جلد الماشية ؟

لكنني الوحيد الذي بدا منتعشاً حسن الصحة كان تلك المرأة
(مارجريت) .. لا أعرف السبب لكن وجهها كان أقل قسوة
وبخائياً من التجاعيد ، وقد فكت شعرها الأسفر الذي كانت تغطيه
في بحسنة حازمة صارمة ، فهدت قريبا إلى اللحظة فشي .. لا تنكر
هنا أنها ضلّت وجهها أخيراً ..

رحبت بي فأخبرتني بأخر الأخبار ..

قالت ضاحكة :

« جميل .. جميل .. هذا سيجعل علاقتنا هنا أكثر صفاً .. »

واقطلقنا لنقابل الباقيين ، ثم إن رئيسهم أخبر الزعيم بنيتنا
فى عمل فحص شامل .. قال الزعيم أشياء فتممة لم أتيها ،
لكن (كوالفارد) قال لى مفسراً :

- « يقول إن الأجانب يأتون فى كل مرة .. يفحصون
الجميع .. ثم يرحلون .. لا شيء يتغير .. »

- « قل له إن الأمر يختلف .. »

- « يقول إن جميعهم يزعم أن الأمر يختلف .. »

- « قل له إبنى أبذل ما بوسعى .. وإلا فليذهب للجحيم .. »

هكذا تمت الموافقة ، وقطلقنا نفحص هؤلاء القوم .. لم يكن
هناك أى نوع من الخصوصية فى الفحص .. فى عالم
بلا جدران تشعر بأنك تعالج قطيعاً من الماشية .. لا تكلم
عن خصوصية المريض فحسب بل خصوصية الطبيب ..
كيف تمارس عمالك بينما هناك عشرون امرأة تلتف حولك
تراقب ما تفعله فى فضول ؟

على كل حال استطعنا أن نجد مجموعة لا بأس بها من حالات
انتفاخ البطن غير المبرر .. سوف يتضح على الأرجح أنها
حالات (حويصلات مائية) ، وقد أخذنا عينات مرقمة من دم
هؤلاء لإجراء اختبارات المناعة عليها ..

حالات سوء التغذية كثيرة جداً .. ثمة حلة كزار واضحة لابد
 أن تنقل إلى (سافاري) .. ملاريا ؟ لم أر حلة منها .. الحقيقة أن
 هذه القبيلة تحتاج إلى فريق طبي أكبر ويعمل الكثير من
 القدرات المحلية ..

وعندما انتهينا من هذا العمل الشاق ، كن الليل قد جاء ..
 هي ليلتي الأولى إذن في أرض (توركوتا) ..

5- شيء يولد ..

عزيزي هلاء !

أشعنا نلأ وجلسنا ، ومن بعد كن رجال (توركنا) يقون ..
لا أعرف قبيلة في العالم لا تقى ليلاً حول النار ...

كنت جلستى بين صديقنا اليونانى - طريد الإسكندر الأكبر -
والنرويجية التى بدأت أراها حسناء .. ومضى الوقت فبدأ
النرويجيون يقون بعض أغانيهم التى لا تلهم منها حرفاً ..

كنت تقى معهم ، وتصلى بيدها فهدت لى لم تتخلص بعد
من بقاء الطفولة العنيدة الخالية من الهموم .. لا أعرف السبب
لكن هذه المرأة تملك سحرًا لا بأس به ..

سألتها فى إحدى لحظات صمتها :

.. « هل أنت متزوجة فى وطنك ؟ »

نظرت لى بدهشة والحافة للتبع بين شفيتها ، ثم قالت فى
شيء من الحرج :

.. « مطلقة .. لا يوجد زوج يتحمل استغراقى الكامل فى
عملى ، ما لم يكن عضواً فى ذات الفريق .. »

- « وماذا عن رجل ذات الفريق ؟ »

- « لا أحد يعتبرنى لقاء أحلام فلما لا أشبه القمية (بارمى) فى شيء .. الواقع إن هذا يريحنى .. لا أتعرض لمضايقات أو عروض زواج .. »

كان هذه كانت رسالة لى .. لم أكن أقوى التمداد فى الكلام ، لكنى فهمت هذا الإنذار من نية التمداد ..

هذه أشياء لا يقولها المرء يا (علاء) خاصة أنك كنت أحد مرعوسى ، لكنى أشعر معك براحة كبيرة .. أقت تعرف صداقتنا الخاصة المتميزة .. تلك الصداقة التى يدعمها كونى لن أراك على الأرجح ثقية .. هذا يجعلنى أتكلم كما أريد بنفس المنطق الذى يفرغ به للمرء أذراج ضميره أمام شخص لا يعرفه بقاء فى الحافلة .. لابد للسر من الخروج حتى لا تنفجر .. والقصة الشهيرة عن الحلاق الذى حفر حفرة وراح يفضى إليها بسره لا تبرح خيالى .. هل تذكر ما حدث بعدها ؟ برزت من الحفرة شجيرة تصرخ كل زهرة من أزهارها بالسر !

أرجو ألا تنبت منك تلك الأزهار يا (علاء) .. لكنى أرجح أن صراخها لن يصل إلى (كينيا) ..

الحقيقة أنني كهل غريب الأطوار .. عشت حياة قليلة
لا وجود فيها للحب .. فقط الطب .. فقط الفن .. والفن كثرة
في حد ذاته لأنه يطلقك على لمحات من علم ساحر آخر لم تعشه
ولكن عشه آخرون .. إنه أشبه برائحة طعام شهى من مطعم
لا تملك ثمن ارتياده .. هذه الرائحة تخبرك أن هناك طعاماً رائعاً
ينعم به بعض الناس لكنك لم تنقه ولن تذوقه أبداً ...

الغريب في هذه اللحظات جوار النار أنني أشعر بأن العصر
لم ينته بعد ، وأن شيئاً غريباً يولد في داخلي .. إنها - المرأة -
في سن متقدمة .. أن تقل عن أربعين عاماً .. وهذا يجعلها
في نطاق عالمي ..

قلت إنها خسنة عصبية .. نعم .. لهذا أشعر برغبة شديدة
من هذه العين الجديدة التي نبئت لي في الليل ، والتي
تجعلني أشعر برائحة بالغة للقرب منها .. لو قلت لي أمس
إنني سأعجب بها لاتهمتك بالخبال ، ولو قلت لي اليوم إنني
كنت أمقتها لاتهمتك بالجنون ..

سألتني غير عالمة بما يدور في رأسي :

- « متى تعود زوجة الزعيم ؟ »

- « لا أعرف .. الجراح هو من يحدد أمورا كهذه .. »

- وقلت في خبث :

- « أنت حرمته بدأ علامة مهمة هنا .. إن كل يوم تمضيه بعيداً يكلفه مالاً .. »

- « يمكنه أن يتزوج ثانية .. »

- « هذا يكلف مالاً أكثر .. »

ثم أشارت إلى أكواخ .. الدائرة الغربية التي لاحظتها صباحاً ، وقالت :

- « هذا كوخ للزوجة الأولى .. إنها تسكن جوار حظيرة المشية وهذا يعتبر شرفاً هنا .. الزوجات الأخريات يسكنن على أطراف الدائرة .. »

ثم أشارت إلى أنها اليسرى وقالت :

- « هل لاحظت القوط الأزرق في أنها اليسرى ؟ »

هزأت رأسي بمعنى أنني لا أبالى بهذه الأمور ، فقلت :

- « معناه أنها فقدت طفلاً .. هكذا تقع مهمة تربية أطفالها القاصين على أمها ! لقد صارت (تابو Taboo) غير قادرة على حملية صفارها .. وعلى ذكر (التابو) .. انظر هناك ... »

في هذه اللحظة رأيت رجلاً شبه عار من أهلى القبيلة يقف
فى وسط الصحابة .. كان يلبس ذات الثياب وإن كان اللون
الأحمر غالباً على كل شىء ..

كان غاضباً .. هذا واضح ولا يحتاج إلى ترجمة ..

تقدم من قنار لتى لسطها رجل لتوركنا ، وركلها فى غضب
فتثر لشعر فى كل مكان .. ثم راح يصرخ فى غضب حتى
توقعت أن يسيل الدم من أنفه ..

همست (مارجريت) :

- « إيه ... »

قاطعتها فى ثقة :

- « مفهوم .. مفهوم .. إيه ساهر القبيلة ويقول إن الأرواح

غاضبة بسبب الرجل الأبيض ، الذى سيقلب الشؤم .. »

- « كيف عرفت ؟ »

- « القصة دالما هكذا .. سألنى لو لم يحدث هذا .. »

ضحكت كثيراً .. ضحكة ترويجية لأجدها باردة جداً .. وقلت :

- « بالفعل هو كذلك .. هذه هى المرة الثالثة له .. »

ثم انشطت لظافة تبغ أخرى وقالت :

- « هو (لوكيريو) .. كل ساحر عند (التوركوتا) اسمه (لوكيريو) .. يعتقدون أنه يمثل الآلهة .. ودوره مهم جداً .. جنب علاجى وجنب يشبه ما تمارسه ملكة إنجلترا .. توحيد القبائل .. هو يوحد القبيلة ويحرم السرقة داخلها ، لكنه يسمح لهم بسرقة الموشى من القبائل الأخرى .. »

- « ودوره العلاجى ؟ »

نظرت له حيث وقف فى الخلفية يوزع لعنته :

- « ليس كبيراً .. الحجمة لآلام الرأس وخلع الأسنان .. هذه لابد أن تكفى فى الجهة الغربية من الكوخ ! »

قلت لها وأنا أأمل الرجل :

- « يمكن أن يكون خطراً .. »

- « ليس لهذا الحد .. الغرباء فيما يتعلق بقبائل (كينيا) البدائية - مثل (ميساي) و(توركوتا) - أن دور الساحر ليس جوهرياً أو ملزماً .. يمكنهم تجاهله أحياناً كما يقوم الغربيون بتجاهل رجل الدين أحياناً .. وهذا - على ما أعتقد - السبب الوحيد الذى أبقنا لحياء .. »

ويبدو أنها كتبت تعرف بالفعل ما تقول ، لأن الرجل تعب من كثرة الصباح والصراخ فابتعد .. وعد القوم إلى مرهم الأول كلما غضبته فترة من فترات التسلية للامسية ، وإن لم يسخر أحد أو يضحك ..



امضيت يومين آخرين عند القبيلة ..

بالنسبة للشق العلاجي كان نشيطاً وشبه ناجح .. لما بالنسبة لشق الأسماك فلم أخرج بشيء .. محادثات لا تنتهي بين الترويجيين والزعم .. واضح تماماً أن رفضه بات للفكرة ..

إنهم حمقى .. محاولة تغيير الطريقة التي نشأ عليها (التورككا) ومارسوها منذ آلاف السنين .. من عصر الإسكندر الأكبر لم يتغير شيء في حياتهم ، والآن يطلقون بأن يتجهوا لتعطيب الأسماك !

بين الدول الاستعمارية يتمتع البريطانيون بحاسة صافية كلما تخطى في فهم الشعوب التي يحتلونها ، وقد كتب البريطاني (هارلي هيو) من خمسين عاماً : إن الماشية والرعى هما عصب الحياة بالنسبة لقبائل (تورككا) ، ومن المستحيل أن يتغير هذا ..

التروجيون لا يملكون نظرة البريطلين الثاقبة ، لهذا يتصرفون بسذاجة لا مثيل لها ..

على أنني قابلت بريطلين آخر أشهر من نار على علم في (كينيا) كلها .. إنه (ريتشارد ليكي Leakey) العالم الأثروبولوجي الذي ولد في كينيا ، وهو الذي أجرى عام 1984 حفريات مهمة على ضفاف بحيرة (توركينا) فوجد هيكلًا عظيمًا نصبي مراهق .. هذا الهيكل تبين بالفحص الكربوني أن عمره يتجاوز مليونًا ونصف من الأعوام ، وقد اشتهر في أوساط علم الأجناس باسم (صبي توركينا) .. من مليون عام ونصف جرى على هذه الأرض صبي يتخصص طريق الرجولة .. ربما أحب .. ربما حسب أنه وقع في الحب .. ربما كان يتيه فخراً بالعضلات الوليدة في تراسه وساقه .. ثم مات لتجده نحن ...

وبعد هذا وجد (ليكي) جزءاً من فكه يعود عمره إلى 17 مليوناً من الأعوام .. وقد افتتح الرجل معهداً للدراسات ما قبل التاريخ في إفريقيا .. ثم صار مديراً لمتحف التاريخ الطبيعي في كينيا .. كان (ليكي) يزور المنطقة في مهمة لم أعرف كنهها .. وقد تبانينا بضع عبارات مجاملة ، وأيقنت أن الأهالي يعرفونه ويحملون له تقديراً كبيراً .. لكن تقديرهم لم يبلغ

تقدير (مارجريت) له .. لم تنطق بحرف .. فقط هزعت تلقاء
وهي ترتجف ، حتى حسبتها مستقدم له القرايين بعد دقائق ..
وراحت ترشف كلماته شرباً .. قالت إنها قبلته عدة مرات في
مؤتمرات وفي (كينيا) لكنها لم تقترب منه قط إلى هذا الحد ..

كان ما قلته مهماً بحق :

« هذه القبيلة قديمة للغاية ! »

ثم ركب طائرته ورحل ...

هكذا ! بهمسلة قدم لنا حقيقة أخرى من حقائق الحياة ، وهو
ما يجب أنى لنا الذى توقعنا أن تخرج قطوف الحكمة من لسانه
إذا تكلم ..

وقلت (مارجريت) ترقب طائرته تهتد كأنه فتى أحلامها
يغيب وراء الأفق .. قلت لها شيئاً لم تتبينه فعندت لكرره
بصوت مسموع :

« هل موعده رحيلى لنا الآخر .. فلم يعد لدى نور هنا .. »

6- إنهم مخابيل ..

عزيزي علاء :

حدثك في الرسالة السابقة عن رغبتى فى العودة إلى وحدة (سفالري) ، وهذا ما فعلته .. الحقيقة كنتى بدأت أدمج فى عالم (توركيا) واستغففتى نشوة كشفوات الشهب .. روح المفكرة التى نسبتها طويلاً تحركت داخلى ، مع ذلك الانجذاب الغريب غير المفهوم نحو (مارجريت جير هلسن) .. إلا كنتى فى النهاية تنكرت من لنا وما هى مصدايقى الحقيقية ..

لهذا عدت لأتسلم زمام الأمور فى وحدة (سفالري) ، واقدمجت فى المشاكل الإدارية والطبية المعقدة .. وبسطه عدت أنا لنا ..

نسيت كل شيء عن الترويجيين ، لكنى كنت ألتقى من حين لآخر تقريراً من أطبائنا هناك .. وقد صاروا خمسة - أو تهبط طائرة الهليكوبتر حاملة حالة أخرى من الكزاز أو الحصصات المقلية ..

لقد عدت تلك الزوجة لزوجها الفخور كى يسدد لبعثتها ركلة أخرى متى لراك ..

وفى لحظات الفراغ من العمل كنت أمد يدي فى الدرج لأخرج تلك الصور التى التقطتها (مارجريت) أو التقطتها (كيسلان) للمجموعة .. إيهما مخولان بالتقاط الصور متى شاءا لأن الأهلنى يتقنون فهما .. طبعا كنت ألتقى الصور التى تظهر (مارجريت) لأنها بعناية .. بأسلة قوية تعرف كل شيء .. مشمرة الكمين تجلس على الأرض أو على جمجمة بقرة ، وتتفحص طفلاً قنراً عارياً بلائرة أشملاز .. تقف وسط مجموعة من النسوة وتضحك من الأعلى ، والنسوة يضحكن كلما هى دعابة مشتركة .. تشرح لى على خارطة ، وأنا أبدو كلبيا هشا مثيرا للشفقة ..

كنت أراقب هذه الصور وأنتهد ..

اصبر يا صاحبى .. اصبر .. سرعان ما يعود هؤلاء القوم لعالمهم البارد جوار وحوش بحر الشمال .. وسوف تنتهى هذه الزوينة من حياتك .. لن يعرف أحد أنها حدثت .. مهما كان عنف الدوامات فى داخلك فإين شيئا لم يظهر على السطح .. وهذا عزاء كلف لك ..

ذات صباح هبطت طائرة الهليكوبتر حاملة (كوالفرد) رئيس الفريق ومعه (كيسلان) و(يونس لى) .. التتى والثالث خبيران فى الصيد لم تمنح الفرصة لأتكلم عنهما بالتفصيل ..

استقبلت ثلاثة رجال في مكتبي ، وكان من الواضح أنهم مرهقون جداً .. صارت لهم رائحة لا تختلف عن روائح (لتوركنا) ، وقد أصبحت مسكرتير في العديدات بالذبول .. طلبت لهم بعض الطعام والمشروبات الباردة فقط لخطر لي أنهم في حاجة لذلك ..

جنسوا يشربون ، وخطر لي أن أقترح عليهم أخذ حمام لكني وجدت أن في هذا لونا من الوقاحة ..

سألت (تريجي كولفورد) عن أخبار الفصل هناك ، فهز رأسه أنه لا بأس .. لا بأس .. لكني كنت أعرف أن هناك كل بأس .. هذه القبيلة لن تتجه لتطبيب الأسماك حتى لو أخبرتهم أن هذا آخر مصدر رزق في العالم .. ثم إن هذه القبيلة مولعة بالترحال .. لن تستطيع أبداً إقناع أهلها بالحياة في موضع واحد ..

- « وكيف حال الدكتور (جير هاسن) ؟ »

وجهت السؤال وأنا لا أرفع نظري عن مكتبي .. لسان حالي يقول : لا .. أنا لا أقدر بميل نحو هذه المرأة ، حتى لو بدا هذا على ملامحي ..

تبادل النظرات مع الجالسين ، ثم هز رأسه :

- « بخير .. بخير .. »

هنا نكمل الشب (يونس لى) وهو شاب له شعر أحمر يتكلى على كتفيه ، وقال :

- « الحقيقة أننا نريد رأيك .. »

- « فى أى شىء ؟ أنتم تعرفون ما تقومون به .. »

لكنهم كتوا مرتبكين فعلاً .. وخطر لى أن تركهم وشأنهم الآن .. هناك مشكلة خطيرة وسوف أعرفها لكن فيما بعد .. ما يعنينى فى الأمر أنها لم تمت .. لو ماتت لعرفت هذا ..

وهكذا طلبت منهم الانصراف والاستراحة قليلاً .. اتصلت بالمسكرتيرة وطلبت منها أن ترتب إقامتهم فى مسكن الأطباء هذه الليلة ، وعدت لأمرس أعلى ..

قرب المساء التقم طبيب نيوزيلندى مكتبى برغم احتجاج المسكرتيرة .. إنه من الأشخاص (جارى للدماغ) الذين يتشاجرون ثم يعرفون لماذا هم غاضبون ..

بوجه أحمر محتقن اتجه لمكتبى ، وصاح :

- « سيدى .. أنت تعرفنى وتعرف أننى لا أقبل القلم بأنواعه .. »

قلت فى هدوء :

- « أنا متأكد من هذه النقطة .. »

« إن ما رأيك في أنني أنهيت عملي في عنبر الحروق ..
 أنت تعرف عنبر الحروق .. لقد قضيت أسود ساعات يومي ،
 وبعد هذا تناولت بعض الطعام الرديء .. وتجهت لفرقتي ..
 هل تعرف ما وجدته في فراشي ؟ وجدت ثوراً نرويجياً يغط في
 نومه ! حاولت إيقاظه فلم يصح .. خرجت وبحثت أبحت عن
 المسئول عن هذا ، فقلت لي إنه ضيف نرويجي لابد أن أحسن
 استقباله .. من قال هذا ؟ بعد كل معقتي وعذابي لجد نرويجياً
 ينام في فراشي .. لو كان علي أن أستقبل كل النرويجيين
 ناقصي الملو في حجرتي لكنت هذه نهاية العلم .. »

باللعل اختار نرويجي أسوأ فراش في العلم لينام فيه ، ومن
 حسن حظه أنه تكبد النوم وإلا لسمع ما لا يحسن سماعه ..
 قلت له وأنا أنتهد :

« د . (كيلين) .. هل تستطيع إيقاظ الرجل ؟ »

« بالطبع لا .. »

« ونحن كذلك .. إذن لماذا لا تختار فراشاً آخر ؟ هؤلاء
 القوم سيرحلون في الصباح .. وهم ليسوا مجنومين
 أو مصابين بالذئب .. كل ما أريده بعض المرونة .. »
 « ولماذا تقع مسئولية المرونة على عاتقي ؟ »

- « لأن غير المرن ينكسر بسهولة .. هذا هو ما ستركه حين تبلغ سنن .. »

وطلبت من السكرتيرة أن تستدعى (جوتيه) مساعدى
كى يحل هذه المشكلة .. لو كان على أن أرتب مكان نوم كل
واحد فى هذه الوحدة لكان على أن أنتحر الآن فوراً ...

قبل أن يخرج التيوذيتدى قال لى وهو يشير نحو
باصبع يمكن أن يكون مهذا :

- « دعنى أخبرك يا سيدى .. إن الدبلوماسية لاتمثل شيئاً
بالنسبة لى حتى لو أفسدت علاقات (نيوذيتدا) مع (الترويج)
(فرنسا) إذا تطلب الأمر .. »

تجاهلته ورفعت سماعة الهاتف لتلقى مكالمه مهمه ..

بعد قليل دخل (كولفارد) مكتبى ..

كان مرهقاً منكوش الشعر منتفخ الجانين .. وأدركت
ما لم يقله :

- « أنتم تعاملون الضيوف بطريقه غريبه هنا ! »

ضحكت فى سرى وقد تخيلت المشهد .. إن لم يختر التهور
الترويجى إلا الفراش الخريت التيوذيتدى لينام فيه .. والتيوذيتدى

لم يجد إلا قائد الفريق كى يتحرف به .. لا بد أن الأمر كان
أسطورياً كصراع الديناصور الذى نراه فى السينما ..

- « إنه غير مرن ! »

- « غير مرن على الإطلاق .. لو أردت رأى .. »

استرخى فى جلسته وأشعل لفافة تبغ ثم تشاءب ..

- « هلا طلبت لى قهوة ؟ »

فعلت كما طلب ، وبدأ لى أنه مثل بشيء يريد قوله لكنه
لا يعرف كيف يبدأ .. وأبركت أنه سيقوله الآن مادام النوم
لم يعد فى برنامج ..

فى لتهلية قل كلمته كأنما هو يريد الخلاص من عبء ثقل :

- « الأستاذة (جيرهاسن) .. »

- « صلتها ؟ »

- « رغبة فى الزواج .. »

بدأ لى الأمر غريباً .. لقد كبرت على من تلقى الصدمات
العاطفية ، لهذا رحت أصفى له فى برود كأننا نتكلم عن شخص
آخر .. وقلت فى بلامبالاة :

- « هذا من حلقها على ما أظن .. »

قل في كياسة :

- « لا اعتراض لدى أحد ، لكنها تريد لزواج من .. من ... »

وبدأت انهم فقتضت عيناى رعبا .. بينما هو يكمل جملة :

- « من الزعيم (كوناكو لاجا) ! »

★ ★ ★

7- لا تفعلنى من فضلك ..

عزيزى علاء :

كان أول ماتجد لى فى هذه اللحظة صورة (كوبكو لاجا) بسمه المتكلمة .. بحجمه الضخم .. بأسنقه المنزوعة .. بقطعة السلك فى رأسه المخصصة لطرء القمل .. بالعظمة فى شفته السفلى .. بالكيس الملى المتضخم فى بطنه ، والذي لن يزيله أبداً لأنه يرمز لتميزه وسط قومه ..

مدت يدى إلى كوب الماء وجرعت بعضه ، ثم عت تكرر السؤال :

- « تتزوج من ؟ »

- « الزعيم .. لقد سمعتى .. »

- « والسبب ؟ »

هز رأسه ورشف رشفة من القهوة ، ثم قل ساهما :

- « لأنها تحبه .. هذا واضح .. »

هذه المرة صارت أمام عيني صورتها .. بالذات وهى تقف وسط النسوة الأفريقيات تتفجر ضاحكة ..

لمذا؟ لمذا؟

عبت أسلحه :

- « ولم تحاولوا منعها ؟ »

- « حاولنا إقناعها بلا جدوى .. لكن ليس بوسعنا منعها

فهى امرأة رشيدة حرة بالكامل فى تصرفاتها .. »

حككت رأسى ورفعت سماعة الهاتف ، ثم تبينت أنى
نصبت من كنت سأطلب .. لهذا وضعتها ثانية ، ثم تذكرت
أن هذا سيظهرنى بمظهر المرتبك .. لذا رفعتها من جديد
وظللت رقما لا وجود له .. وظللت دقيقة أصفى للضجة
المختلطة عبر الأسلاك ..

بعد قليل وضعت السماعة وسألته :

- « وما دورى فى الموضوع ؟ »

- « خطر لنا أنك قد تستطيع أن تنهب دورا فى إقناعها .. »

- « أأتم أرى بمواظبتكم .. وأوكلت مخبولة فهذا ليس

شأنى .. »

- « أعتك أنها تحترمك بشدة .. »

رحت أفكر في الأمر .. فيما بعد سألزنت قليلاً واستوعبت
خصلتي .. لما الآن فالأمر غريب لكنه ليس جريمة .. هي حرة
وبلغة وتعرف كيف تتخذ قراراتها .. لا يوجد ما يمكن عمله ..

لكن لرجل كان في حال سيئة بالفعل ، حتى أنني رجحت أنه
يحبها سرّاً كما أفعل أنا .. طبعاً فيما بعد عرفت أن هذا كلام
فارغ ، لكن حماسه وإحباطه كتنا غريبين ..

كان لابد أن أقول له شيئاً ما ، لهذا قلت له :

« الآن تكمل نومك في فراش آخر .. وغداً أرى ما يمكن
عمله .. »

بعد انصرافه فتحت الدرج ورحت أقمل صورتها ..

لماذا ؟ لماذا ؟

في الصباح أجريت المكالمات التي خطرت ببلي وأنا في
فراشي ليلاً ..

جاء صوته عبر أسلاك الهاتف البعيدة يتسائل عن هناك ..

« د. (ايكي) .. أنا (سينوريه) رئيس وحدة (مفلزي) .. »

عالم الأنثروبولوجي الأكبر هناك يصفني إلى قصتي وهو

لا يعطى تقريرًا .. فقط يصدر مهمة بمعنى أنه يتابعنى .. فلما انتهيت من سرد القصة قل فى عدم اكتر اثار حقيقى :

« لا أعرف عنها الكثير لكن هذا شأنها على ما أعتقد .. إنها لم تمنحك وعدًا بالزواج .. »

كنت أخشى أن يقول شيئًا كهذا فقلت بعصبية :

« هل تقبل المبدأ ؟ »

« ليست أول عالمة أنثروبولوجى تطلقها .. علمت كثيرات فطنتها .. إنها رغبتهن فى أن يعشن التجربة من الداخل لا الخارج .. وفى كل مرة كانت النتيجة دراسة تستحق .. »

« هذا الزواج نموذج فريد فى عدم التكافؤ الحضارى والثقافى والمادى والجمالى وكل شيء .. »

« هذا هو ما يجعله تجربة فريدة تستحق الدراسة .. ترى ماذا يحدث للزيجات الخالية من التكافؤ الحضارى والثقافى والمادى والجمالى وكل شيء ؟ »

بدأنى موقفه ثابتًا .. كأنه اتخذ قراره من قبل ولن يتزعزع عنه ..

قلت له بصوت مهجوع :

« إنى أنت لا تقترح شيئًا ؟ »

قال بهدوء :

« اعتقد أنها تعرف جوانب الموضوع وقد اتخذت قرارها
بعد ترو .. لكن لا أرى ما يمنع من أن تتلقاها مرة أخيرة .. »
وانتهت المكالمة ، وجلست أفكر في الأمر ..
أخيراً قررت أن ألقى بالرجال العائدين إلى (توركتا)
صباحاً ..

لأبد أن أعرف سر قرارها الغريب هذا ..

لماذا ؟ لماذا ؟

هبطت الطائرة مبعثرة قراميل في كل صوب .. وكان عدد من
رجال (توركتا) يلقون يراقبون المشهد في لامبالاة ..

ترجلت من الطائرة ومشيت ومسطهم أوزع التحيات
بملامح الوجه .. أخيراً رأيت (مارجريت) تلتف مع إحدى
النساء وهي تجرب أن تلتف شالاً أحمر فاقع اللون حول
خصرها .. كانت ملامح الحياة عدة أسابيع في هذه البيئة
الصحراوية القاتلة قد بدت عليها .. صار لون بشرتها
كسرطان البحر المسلوقي مع الكثير من التجاعيد .. أما
شعرها فصار كتلة لينة لا تعرف كيف تلتفها ..

قلت لى حين رأيتى :

- « مرحباً .. »

شعرت بغصة فى حلقى ، وقلت لها :

- « لريد ان نتحدث على انفراد .. »

وهكذا اصطحبتهما بعداً عن مجال السمع والنظر ، وأخيراً
قلت لها فى عصبية :

- « ما هذا الذى سمعته ؟ »

ضحكت كثيراً ، وقالت :

- « اعتك لنى خمنت الموضوع .. هؤلاء العصابة لا يصنفون
لنى فتاة رشيدة حرة الاختيار .. »

فى استملاز هتفت :

- « هل تتحملين الحياة مع هذا المخلوق ؟ لنى لا أطيق
رؤيته بضع دقائق .. لو كنت تتوين التضحية بحياتك من
أجل إضافة سطور جديدة إلى علم الأستروبولوجى فأنا
أنصحك ألا تلعلى .. »

هذه المرة صارت ملامحها أكثر جدية ، وقالت بإخلاص
لاشك فيه :

- « ساكون صريحة معك .. بالنسبة لهؤلاء للقوم أنا
 بشعة كسلبية .. نسخة أنثوية باهتة محروقة ، ولا أحسب
 أن في شخصي من الصفات ما يروق لزعم .. »

ثم تفجرت ضاحكة :

- « تصور ! هذه هي فرصتي الوحيدة في الحياة كي
 أتزوج زعيماً ! »

- « لا أجد هذا مسلياً .. »

- « بعيداً عن المزاح الذي لا تجده أنت مسلياً ، أنا فشت
 في العالم المتحضر كله عن رجل حقيقي .. رجل بمعنى
 الكلمة .. رجل كما خلقه الله لم تتلفه الحضارة وتجعله
 مائلاً يهمل أنصاف الحلول .. رجل لا يخشى أن يقول
 لا ولا يخشى أن يقول نعم .. رجل لا يخشى أن يكون لظناً ..
 ينذر زوجته أنه سيضربها ثم يضربها .. »

صحت في غيظ :

- « هل هذا ما يروقك في الأمر ؟ إن جمعيات حقوق
 المرأة لن ترحب بما تقولين .. كل هذه الأعراف من المتحضر
 تدميرناها أنت في ثانية .. كأنك تتوقفين إلى رجل للكهل
 الذي يحمل الهراوة ويجر امرأته من شعرها ؟ »

— « ولم لا ؟ لقد وهبه الله العضلات كي يفعل هذا ،
 ووهب المرأة للشعر الطويل كي يجرها لخدمهم .. هل تعلم
 أن المرأة ذات الشعر القصير كتبت منبوذة في تلك
 للمجتمعات ؟ »

ثم نظرت للألق وقالت كأنها تحلم :

— « منذ مليون عام ونصف يعيش هنا على ضفاف البحيرة ..
 لم يتعاقد مع شركة تأمين ، ولم يصرف شيكاً في مصرف ،
 ولم يقد سيارة ، ولم يقرأ صحيفة .. إنه الإنسان البكر الذي
 لم يتلوث .. لن تجد واحداً مثله أبداً .. أما رأيت زنوجنا
 يرقصون للديسكو ، وشاهدت البدقيين في (بابو غينيا الجديدة
 Papua New Guinea) يحملون أقراص الكمبيوتر المدمجة ..
 الهنود الحمر يمثلون في السينما .. الأستراليون البدائيون
 يعرضون بدائيتهم طمعا في مزيد من الجنيهاات .. باختصار
 لقد تلوث العالم .. هذا هو الموضع الأخير .. المعقل الأخير
 الذي ظل يحتفظ بدائيته الأولى .. وهذا الرجل يرمز لهذا
 الطهر الأولى .. لهذا أريد أن أتوجه ا »

— « لقد ركل زوجته لأمنا .. وكاد يقتل أخرى .. »

— « هذا هو تعبيره البدائي عن الامتلاك والحب ! »

كنت أختفها .. لم أرفى حيقى منطقاً معكوساً كهذا .. الإنسان يكافح منلت السنين من أجل خطوة فى طريق الرقى والتحضر ، وهى تلتى لتظن أن هذا كل فى طريق الهدم لا البناء ..

- « إن أنت لا تريتنا رجالاً ؟ »

هزت كتفها وقالت مراوغة :

- « كما أئنى لا أعتبر نفسى امرأة .. الخوف كل الخوف ألا يقبل هو .. »

نظرت لها مفكراً .. لو كنت تلعب لعبة ما فهى بارعة جداً .. كنت سأحترمها لو قالت إنها راغبة فى دراسة هؤلاء القوم وإعداد دراسة فريدة عنهم ، وبعدها فليذهبوا إلى الجحيم .. لكنها تتحدث عن الحب ..

فى النهاية قلت لها ولما أبتعد :

- « أئمنى لك التوفيق وإن كنت لا أعرف كيف .. »

صاحت وقد وجدت أئنى أبتعد :

- « لحظة .. الأمر ليس بهذه البساطة .. لابد من أب لى ! »

- أب لى ؟ التفت لها فى حيرة .. ماذا تعنين بالضبط ؟

- « لا أستطيع أن أطلب منه الزواج .. لابد أن يقتل أبى ويتكلم معه .. هذه هى التقاليد والتقاليد هنا كحد السيف لا تهانون فيها .. »

- « إذن هاتى لك .. »

- « لا أعرف عنه شيئاً .. إنه فى (أوسلو Oslo) وربما توفي على الأرجح .. هذا يحتم أن يلعب أحدكم هذا الدور ، فللزعيم سيصدق أى شىء ! »

كان الغيظ يكاد يطير صوابى ، لكنى تمسكت وقت فى حزم :

- « عليك بـ (كولفارد) .. إنه قائد الفريق أى أنه الأب الروحى لكل منكم .. »

مطت شفيتها السفلى الملونة بالتيكوتين وقلت فى إحباط :

- « إنه أبى .. مامن واحد بين الترويجيين قبل هذا الدور .. »

ثم قلت فى سرود وهى تخرج لفافة تبغ من حقيبها :

- « لن أهتمهم أبداً .. حسبت كفى أربت شيئاً هو من صميم اختصاصى .. »

- « هم كذلك أحرار .. »

نظرت لى فى ثبات بعينيهما الزرقاوين الرماديتين وقلت :

- « وماذا عنك أنت ؟ »

8- زفاف حبيبتي ..

عزيزي علاء :

كما تعرف يا (علاء) أنا است من الطراز الذي يظهر عواطفه بسهولة .. لكن مسخريه الموقف لا تخفى على أحد .. حاولت التماس لكنها أصرت على أنني السبيل الوحيد لتحقيق مسغتها ..

- « أنا لا أرى في الموضوع سبيلاً لمسغتك من أي نوع .. »

- « هذا يقع على كاهلي .. »

- « الترضي أنني رفضت .. »

- « لن تفعل .. ولماذا ترفض ؟ »

أنت تعرف هذا الشعور الدرامي الذي يدفع للمرء لارتكاب أعمال عجيبة لا يقبلها في ظروف عادية .. نعطها تلك الرغبة الملوسية في علق ذات .. إلى الوصول بهذا الموقف الساخر إلى أقصى درجة له .. نفس النزعة الدرامية التي كنت تكفح المحكوم عليهم بالإعدام في إنجلترا إلى أن يقدموا البعثيش للجلاد ..

لماذا لا نتركها تعيش هذه التجربة ؟ إن الأيام خير معلم ..

ولفقت على مضض ، وإن ألهمتني لى لا أعرف شيئاً عن
الدور المطلوب ..

- « سأشرح لك كل شيء .. فلما صرت أتكلم لغيرهم جيداً .. »

★ ★ ★

لما صرحت النرويجيين بذلك ضربوا كفاً بكف ، وهتف
(كيسان) مغضباً :

- « أنت جنتت ! لقد طلبنا منك العون لكنك جئت تريد
من متاعنا ! »

قلت له فى صبر حيث جلسنا هناك خلف جمل يترك على
الرمال ، ويجتر طعامه فى تراخ :

٥ - « اسمع يا صديقى .. مواطنكم هى المخبولة لا أنا ..
لقد استبدت بها غريزة الاستشهاد من أجل العلم ، وكل هذه
السخافات ، وهى تعتقد أنها تفعل أهم عمل قامت به فى حياتها ..
نصبت المشكلة مشكلتى .. لكن إن لم أقبل أنا ستجد من يقبل ..
لا أستبعد أن تجيء بـ (ليكى) كى يقوم بهذا العمل .. أحسب
أنه سيتحمس لهذا .. لهذا قررت أنه لا مانع من تقديم هذه
الخدمة لها .. هبها مجاملة .. »

- « مجاملة أخيرة ! »

وفي اللحظة التالية وجدت نفسي على الأرض ونفسي
تؤلمني بعنف ..

من فعلها ؟ ليس الاستنتاج صعباً .. إنه ذلك الصوت
(لوسكار سفيريراب) .. ذلك الذي لم يفتح عليه الله بكلمة
ولحده منذ بدأت الحملة ، لكنه الآن قرر أن يبدأ بالفعل .. هوذا
يقف أمامي مكوراً قبضته وعيناه الزرقاوان ينبعث منهما
الشرر ، وقد انتثر الشعر الأشقر حول رأسه فهذا كاسد .. كاسد
ترويجي غاضب يريد القتلى ..

أسرع (كولفارد) والباقيون يحيطون بهذا المجنون ، على
حين جلست في مكثي لاهثاً ..

قلت وأنا أضح نقي :

- « أنتم مشر الترويجيين تحيروني .. حسبت بلاككم مقل
لحرية الشخصية .. أنتم تتصرفون كسرة في ريف (إيطاليا)
تدافع عن شرف انتهت .. »

ثم رأيت عينيه من جديد لفهمت ..

لم أكن الوحيد الذي يحبها إذن ..

قال (كولفارد) وهو يساعني على التهوؤ وينفض الرمال
عن ثيابه :

- « مطررة لحمل صديقنا .. أنت تلهم .. أرجو أن تنسى هذا الموقف تمامًا .. »

وقال (كوسلن) :

- « أنت لن تكتب هذا في أي تقرير .. هه هه »

هزئت رأسى ولم لك شيئا ..

ابتعت ..

كنت أوجه إلى كوخ الزعيم ...

★ ★ ★

عند المساء جلست في الخيمة التي منحوها لـ (مارجريت) ..
كانت جالسة متوترة لكنها لا تكف عن التقاط الصور
الفوتوغرافية .. المشهد كله مثير للسخرية ، لهذا استمتعت به
إلى أقصى حد .. إن من قرأ (فولتير Voltairre) في سن العاشرة
مثلى ، لابد من أن يستمتع بما في الموقف من سخرية ..
أجمل للسخرية وأقواها هي التي نسفر فيها من ألسنا ..

من بعيد أرى حشدًا من رجال (توركيا) يتقدمهم
(كوباكو لاجا) الرهيب .. يهشرون الرمال من حولهم .. لقد
قبل (كوباكو لاجا) أن يتنازل ويطلب يد ابنتى منى ..

وصل إلى الكوخ وسط أضواء الفلاش ، فوقف قليلاً ينظر
لى ثم لعروسه المرتقبة .. ثم قال شيئاً ما بصوته الخفيض ..

- « يقول إنه يريد استعارة ثورك .. »

قالتها (مارجريت) بصوت خافت من خلفى .. ثم أريفت :

- « الثور هو أنا طبعاً .. »

- « مفهوم مفهوم .. »

ونظرت لوجه الرجل للكالح الصلب ، وقالت :

- « موافق .. لكنه مازال صغيراً .. »

نقلت له (مارجريت) ما قلت ، فهز الزعيم رأسه فى رضا
واستدار مبتعداً ..

استدرت إلى (مارجريت) متسائلاً :

- « هل هذا كل شيء ؟ »

- « لا .. هذه هى الموافقة المبدئية .. سوف يذهب ليتزين

ويعود غداً .. »

عنت أنظر لها وتساعلت فى حيرة :

- « بعد كل أعوام لتقدم هذه تلخزين بأن يعطيك أحدهم ثوراً ! »

ضحكت وقالت :

- « لا توجد ضعفان شخصية هنا .. هذه هي التقاليد .. لابد من هذه المحادثة .. »

- « سيكون رائعاً .. »

- « ما هو ؟ »

- « كتابك عن طقوس الزواج عند الـ (توركاتا) .. »

صاحت محتجة ، وهي تركز الرمال في وجهي :

- « كف عن السخف .. ما زلت مصراً على أنني أفعل هذا كله من أجل كتاب ؟ قلت لك إننى أفعل هذا لأكنى أريده ! »

بنت لى فتنة فى هذه اللحظة ، وخطر لى إبه كان خيراً لى ولو ولدت زعيماً لى (توركاتا) ألبس جلد الأبقار وأغرس قطعة سلك فى رأسى .. لحياتاً تكشف أن هذا خير لك من إدارة وحدة (سالفارى) للكنية ..

ومن بعد رأيت .. كان قدامنا نحونا ..

من ؟ (لوكيريو) الساحر طبعا .. وليس وحده .. إبه يحمل قرية من الجلد ملينة بشيء لا أفهمه ..

كان قد تكلم من رحيل الزعيم .. هكذا قبحه نحو خيمتنا
بخطا ذلته ، ووقف ينظر لى فى ثبوت ..

كنت يوما أشعر بشمئزاز من هؤلاء القوم حتى لو لم
يعادوني بالذات .. من هو ساحر القبيلة ؟ إنه مدع لا يجيد
الصيد ولا يجيد حلب الأبقار وليس قويا ليدافع عن القبيلة ..
لم يفرس غرسة وليس له رحم لينجب الأطفال ، ولا يستطيع
تشييد خيمة .. ما هو دوره فى الحياة إذن ؟ لا نور
ولو أنصفنا لتخلصنا منه فى أقرب مستقع .. لكنه يعرف كيف
يعرض هذا كله بالمزيد من النصب .. يلبس أغرب ثياب ويقول
أغرب الكلام .. إنه خبير بالآلهة والمفضل عندها .. إنه يعرف
كيف تفكر ومماذا تريد .. هكذا ينال الاحترام والمهابة
ويكسب ويأكل الفضل من كل الكادحين من حوله .. إنه
لا يساوى قلامة ظفرهم لكنه ينال كل شيء .. هذه هى اللعبة
منذ كان كهنة (آمون) يأخذون القرابين من الفلاحين
البايسين ، ثم يدخلون أقدس الأقداس ليجلسوا مع الإله ..
بينما هم فى الحديقة يريدون لتهام كل هذا للبط والجبن
والبصل .. بعد هذا يخرجون ليقولوا للناس إن (آمون)
راض .. إتهم خبراء يعرفون متى تزوج (آمون) ومتى
أنجبت (إيزيس) .. كل هذا و (آمون) لا وجود له أصلاً ..

كنت غارقاً فى هذه الخواطر ولما أتوقع رد فعل عذلياً من ذلك الرجل المقيت ..

تولعت أن يبصق على ويبيثر الرمال فى وجهي .. الحقيقة أنه فعل شيئاً من هذا لكن على نطاق أوسع .. لقد قذف محتويات القرية على وجهي ، وعندما أركت أظني ملوث بالدماء .. وإن (مارجریت) ليست أفضل حالاً ..

لو غداً ملأ القرية بدم حيوان منبوح .. ويبدو أن هذه من علامات القلعة هنا ..

- « يالك من مقرء !! »

قلتها ونهضت خاضعاً .. بينما ولى هو الأكلار وهو يحرك جسميه العاريين حركات رقصه معينة ..

نهضت عارماً على الفتك به خلسة وهو لا يتفوق على فى الحجم ، لكن (مارجریت) صلحت وهى تبصق على الرمال :

- « دعه ! تقوا ! أنت لا تقدر مسئولية الاعتداء على رجل مقدس كهذا ! »

- « قلت لى إنه ليس مطلقاً للسلطة .. »

- « ليس إلى درجة ضربه .. إنه مفتاح لأن كل تحذيراته
من للمرأة البيضاء الخبيثة لم تلق أننا صاغية .. دعه يفعل
ما يشاء .. »

جاء المساء التالي ، وفي هذه المرة دوت أصوات القاء من
خارج الرجل والنساء .. غناء بدائي جداً لا يشبه تلك الأصوات
الرخيمة التي تسمعها في (سيراليون) و(الكامبيون) ولرض
(الزولو) ..

ومن بعد رأيت (العريس) قلماً ..

كان قد فرد قلمته واركدى أسماً حمراء فاقفاً لونها ..

أغضض عيناً واحدة كعلته حينما يحب أن ينظر بتركيز ، وعلى
وجهه رسم علامات الإشمزاز والتلف كئتما هو تنزل بقبول
الزواج من لهنتي .. هو شيء لا يريد له لوغد لكنه طلب منه
يلحاح ..

نسيت أن أقول إنه في نزوة لثقته .. ما من أمير دخل قصر
(فرساي Versailles) أيام الملكية في منظر أبهى من هذا ..
ما من لورد بريطاني دخل كاتدرائية (وستمنستر Westminster)

بشباب أكثر إبهاراً .. لقد استحم بالطين بالكامل فغطى كل شيء فيه ، ثم نثر قشر بيض النعام على هذا الطين لصار يشبه سلحفاة فضائية ..

منطى بالوحد الجاف والقشور اتجه نحونا ..

ثم وقف على بعد أمتار منى وألقى بشيء فى الحافة عند قدمي .. هذا تبغ .. لابد من الكثير منه لولاد العروس .. ثم إنه أشار للوراء ..

هنا رأيت النوى .. عدداً كبيراً منها يقف فى الخلاء ..

قال (كوالمارد) وهو يقترب منى :

- « هذه هديته لك ! اثنتا عشرة ناقة بالتتمام لك ! أنت صرت ثرياً ! »

أصابنى الذهول فاستنرت أسأله :

- « هذا مهر العروس إذن ؟ »

- « بل اعتبره ثمنها ! »

- « لكن هذا سعر أقل من زوجته التى عالجتها .. »

- « لأن المرأة البيضاء لا تستحق كل ما يلقه فى زميلتها السوداء .. لاحظ أنه لم يتحمس لهذه الزيجة بل قبلها على سبيل المجاملة ! »

تخلت نفسي علداً لوحدة (سافاري) على ظهر ناقة ومن
خلفي قلعة من التوى .. وابتمت في سرى .. هذه هي المهن
المربحة بحق ...

وفي اللحظة التالية كان الزعيم يجر (مارجريت) في كثير
من اللحظة نحو خيمته ، بينما يلقى القبيلة يهللون ويقتون ..
واحتشدت حولها مجموعة من النساء رحن يصفقن ويصدرن
أصواتاً غريبة من الحلق .. إتهن زوجات الزعيم الأخريات ..
فهت من (مارجريت) إتهن أن يحاربنها بل هن يرحبن بكل
زوجة جديدة ، لأن هذا يخفف عبء العمل للملكى على
عائلتهن .. لقد كسبن يداً عاملة جديدة .. لكل سعيد ما عدا
الحمقى الأوروبيين ..

يبدو أن حفل الزفاف كان مختصراً ..

وقضيت على الأرض لتكلم لتبع .. ورحت أمضته على سبيل
المزيد من تعذيب النفس ..

لأنها فقط قتلت قبيلة لكل بدائية .. لأنها قتلت زوجاً
يمكن أن أرى فيه مزية واحدة ...

ربت (كولفورد) على كتفى وقال :

« لا تبكس يا صلبى .. لعلها ترشده إلى هجر الوشية .. »

بصفتك التبع ، وكنت بصوت مبحوح :

- « لا أعتقد .. أرجو ألا يقودها هو إلى الوشية .. إنها معجبة به كما هو من دون قشرة الحضارة .. لا أعتقد أنها مستحولة تغيير شيء في عالمه .. »

وهتف أحد النرويجيين :

- « هل تشركنا حفل التابين ؟ »

وقال آخر :

- « كنت صرت ثرياً .. ماذا ستفعل بكل هذه النقود ؟ »

كنت شاردا للذهن :

- « ساهبها لأول راع هنا قبل أن يعنى بها .. إن المرأة مثقل بالمسنويات فلن أضيف إليها قطعاً من الإبل .. »

ونظرت للطائرة .. كنت أعرف أنني سأعود القليلة إلى (سفاري) .. هذه المرة لم يعد لي مكان هنا فعلاً ..

كالعادة دخلت فرشتي وأغرقت الفكرى بين صفحات ديوان (لنا ولنت) للشاعر (بول جيرالدى Paul Geraidy) ..

الديوان الذي لم لكف عن قراسته من عشرين عامًا .. ثم لا
والشاعر نفسه قال إن نجاح هذا الديوان للوقح ظل يطارده
لربعين عامًا ؟

« آه لو تعرفين ما يدور في نفسي هذه الليلة من طموح
وكبرياء ورغبة وحنان ،
ولكنك لن تستطيعي ..
آه .. أحبك .. أحبك ..
هل تسمعين ؟
مجنون بك .. إنني أنطق بذات الشيء في كل مرة ..
تضحكين ؟؟ تقولين إنني ضهي ؟
ماذا أصنع لتعرفي ما أقول (فارغ ما أقول)
أريد أن أفصح أن أعبر .. أن أترجم .. أريدك تعرفين ..
تعرفين ماذا ؟
إن الحب هو أنت .. أنت .. »

حقًا لا أعرف متى سقط الكتاب من يدي ولا متى نعت ..

لقد حلمت .. حلمت كثيرًا جدًا بأستاذ فرنسي نحيل .. وحيدًا
وسط الجليد مثل طريقه .. هناك شخص ما يتحرك من بعيد لكن
بلوغه مستحيل ، وروية وجهه أكثر استحالة .. يحاول الأستاذ

أن يتمسك والانتزاع قفاه .. في النهاية تصع شرح تحت قفاه
وسقط وهو يصرخ ...

ككل أحلام السقوط صحت قبل أن أبلغ الهاوية ..
فوجدت الوسادة مهللة ...

★ ★ ★

9- تطورات ..

(طبقاً - بعد فترة - لم بعد (سينوريه) يتكلم عن هذه القصة ، وقشقت في مشكل أخرى من مشكل (سافاري) التي تعرفونها ، والتي سأحكيها فيما بعد ، ومرت تحت جسر حتى مياه كثيرة .. كتبت خطبته عافية تتحدث عن تملاته في الحياة ومشكله في الإدارة ، إلى أن عاد بعد سبعة أشهر يتكلم من جديد عن تلك العلما لنرويجية .. »

عزيزي هلاء ..

كنت تعرف أنني لم أر (مارجريت جيرهانسن) منذ تلك الليلة .. وأعتقد أنني نسيت وجودها في العالم ، وإن كان هذا بجهود عفيف قاومت به نفسي ..

لما عن فريق لنرويجيين ، فقد قضوا في المنطقة لأسبوعين آخرين ، ثم عاد نصلهم حول ضفاف (توركتا) ، وقدرت أنهم لم يقطنوا بعد من محاولة إحياء مشروع الأسماك ..

على أن هؤلاء القوم لم يعودوا يعرفون شيئاً عن (مارجريت) ، لأن القرية كلها ارتحلت كعادة (التوركتا) إلى مكان آخر صالح للرعى ، بينما لنرويجيون مستقرون قرب البحيرة ..

هناك أخبار أخرى مثيرة نوعاً هي أن تمسلاً من تمسح (توركيا) اتهم واحداً من الفريق يدعى (جيرارد سولفن) ..
لقد قرر القتي أنه (مرزان) وأن بوسعه السباحة في بحيرة
(توركيا) دون أن يعترض أحد .. أما التماسح فيبدو أنه حسب
ثوراً برياً .. كان رأي دالما أن تمسح (كينيا) هذه لا تنقي
في اختبار طعنها ..

كل هذا كان يسير بالوتيرة المعتادة، لكن ما فجر القم الفارق
من جديد هو تلك الكلمة التي جاءت ذات يوم في وحدة
(سفاري) .. ضمن من المتكلم ؟ (ليكي) شخصياً ...

سأنتي عن أحوالي وأحوال الفريق .. ثم عن تلك الكلمة
الترويجية التي تزوجت ..

قلت له :

« لا أعرف عنها شيئاً منذ حفل الزفاف .. »

قال ضاحكاً غير أسلاك الهاتف .. حتى إنه كان يوسعي أن
أرى حاله يرتفعان وجهته تتجدد :

« إنها تعزز نجاحاً عظيماً .. قرأت لها الكثير من الأبحاث
عن (توركيا) في مجلاتنا المتخصصة .. »

فابتلعت ريقى وسألت :

- « متى ؟ »

- « الأشهر الأخيرة ! إنها تنتج نحو بحثين كل ثلاثة أشهر ! »

شعرت بدهشة عارمة .. فإن هى تعمل ! فى أية ظروف وتحت
أية ضغوط ؟ برغم هذا تجد الوقت لتكتب وترسل للمجلات ؟ ثم
كيف ترسل ما تكتبه ؟

قال لى عبر الهاتف :

- « لا توجد مشكلة فى إرسال الأبحاث بخط يدها مع أى
شخص متجه إلى العاصمة .. لكن المحير هنا أنها صارت لغزاً
فى الفروج .. لا أحد يعرف أين هى فى (كينيا) بالضبط ..
لنا وأنت نعرف وعد محمود من الفريق .. زوجها يبحث
عنها بجنون ! »

- « زوجها ؟ »

- « نعم .. هى لم تحصل على الطلاق بعد .. »

- « كذبت علينا إذن .. إن لها زوجين الآن ! »

- « هذا ما خطر لى .. يحسن لو لقيتها أن تتصدها بعدم

العودة إلى وطنها قبل أن تصوى أمورها مع الزعيم .. »

وضعت سماعة الهاتف شاعراً بحيرة عذراء .. فإن هي كذبت
مرتين .. للمرة الأولى حين زعمت أنها مطلقه .. المرة الثانية
حين زعمت أن الحب هو سبب ارتباطها ولا علاقة لهذا بعلم
الأنثروبولوجي ..

كنت أحمق حين منحتها ثقتي .. إنها تكذب طيلة الوقت
على الجميع .. ولماذا تكذب ؟ لا أعرف .. لكن من قال إن
(مارجريت جير هالسن) امرأة بسيطة هينة الشأن ؟ إنها
قوية إلى حد لا يوصف ويمكنها خداع الجميع ..

قلت لنفسى إن هذا لن يحدث فارقاً .. لن يتغير شيء فى
القصة فلما لن أراها ثانية ...

لكن كنت مخطئاً ..

« هالو .. د. (سينوريه) .. أنا (ميكوس) .. »

كان هذا صوت صديقنا اليونانى يتصل بالوحدة .. وكان يتردد
مع طاقم التمريض على قرى (توركيا) مرة أسبوعياً
بانتظام .. فنحن لم ننه المشروع ، وإن كان يرتاد جماعات
مثل (لوكتشوكيو) و(لوكتشيل) و(إليا) ولم يعد قط
لجماعتنا الأولى ..

- « هالو (ميكوس) .. هت ما عندك .. »

- « لادى حلة يجب نقلها إلى الوحدة .. اقترح أن ترسلوا لنا الطائرة .. »

- « سافعل .. ولكن ما هي المشكلة ؟ »

- « جرح نافذ في جدار البطن .. إنها تلقت طعنة من (أمليتي) .. نوع من المدى الخاصة بهم .. »

- « سارسل لك الطائرة .. »

وأصدرت تعليماتى للقائد الطائرة كي يتجه إلى المكان الذى حددته (ميكوس) ..

وبعد أقل من ساعة سمعت المحركات تهدر فى القاء الخلفى للوحدة حيث تهبط الطائرة فى كل مرة ..

بعد ساعة من العمل قررت أن أتوجه إلى قسم الجراحة لأرى ماتم هناك ، فاصطلمت بالمحفة أثناء خروجها من غرفة الجراحة .. كانت فوقها امرأة من (التوركوتا) مغطاة بالطين تقريباً ، فلابد أنهم احتاجوا إلى جهد جهيد كي يزيلوا كل هذا الطين ويجدوا موضعاً يلتحون فيه .. الذى لاشك فيه هو أنها تعبر من فتات (توركوتا) وأكثر نساءها أمانة ..

من خلفها رأيت (شروبر) جراحنا الأكملى البارع .. كان
ينزع ثيابه ويثرثر مع طبيب آخر جواره ..
- « لابد أنها كانت مهمة شاقة .. »

قال وهو يمشط شعره أمام امرأة كبيرة :

- « ليس إلى هذا الحد .. إن الجرح مرعب لكنه ليس
خطيراً ، واعتقد أن فريق أطباءك هناك كان مذعوراً أكثر
مما يقتضيه الأمر .. »

ثم توجه إلى المرأة لتلمة تحت الأغشية وصاح بصوت عل :
- « هلمى يا (مارجريت) ! لقد انتهت ألامك ! »

شهقت المرأة وسطت ، ثم مدت يدها لتزع أكبوب القصة
الهوائية الذى كان يتكلى من فيها .. وهى الطريقة التى يحبها
أطباء التخدير : دع المريض ينزع الأكبوب بنفسه .. اقتزعت
وطوحت به جانباً ثم راحت تكرر الهواء كرعاً ..

الآن أرى وجهها .. لشد ما تغيرت !

لقد لُزقت شعرها بالتكامل ولحل وجهها .. ثمة ممثلة سينما
صلعاء مثلها لم أعد أفكر اسمها .. وكنت ترتدى ثياب هؤلاء
النوم - (توركنا) لا الممثلة - بالضيظ .. باختصار صارت منهم
تماماً فلم أعرفها إلا حين سمعت اسمها ..

صحت في دهشة :

- « (مارجريت) .. ولكن كيف حدث هذا ؟ »

نظرت لي بهاتين العينين الزجاجيتين اللتين لا تريان ،
المميزتين لمن يفيقون من التخدير ، ولم تقل شيئاً فتطوع
الجراح الألماني بالإجابة :

- « طعنها أحدهم .. تقول إنها عالمة نرويجية تدعى
(مارجريت جيرمانسن) .. لا أعرف كيف ومذا تفعل هناك ،
لكنني أعرف هؤلاء العلماء .. كل شيء جالس .. »

ثم أضاف وهو يرتدى قميصه :

- « لو ارتفعت قطعة قليلاً لفجرت حويصلة مائية تحت
الحجاب الحاجز .. ولو هبطت قليلاً لمزقت الجنين ! »

جنين !

لم أعرف ما أقول فتركتهم بأخفونها إلى الغبر ، وعدت إلى
مكتبي شارداً الذهن .. حاولت تذكر شيء عن تلك الطبيعة
الشفراء التي فتنتني يوماً ما فلم أستطع .. كل ما رأيته على
المحفة امرأة من (توركاتا) قضت حياتها في صنع السلال
وحلب الأبقار ..

هكذا فتحت الدرج بحثاً عن الصور القديمة ، وشرعت
أفحصها .. لشد ما انتفخ ! من قال إن لنا وجوهاً وطباعاً
ثابتة ؟ إننا كالشلال نتبدل في كل ثانية ..

بعد ساعة أخرى اتجهت إلى عذر للجراحة .. استقبلتني
ممرضة بريطانية حارمة تذكرك بمديرة مدرستك .. قالت لي
في عصبية :

- « هؤلاء القوم .. لماذا لا يستحمون مرة واحدة ؟ لقد فست
الأغطية تماماً .. كان المفروض ألا توضع في الفراش قبل أن
تأخذ حماماً ! »

تخيلت رجلاً مطعوناً في بطنه يرغم على أن يستحم قبل أن
يسمح له بالرقاد في فراش ، وأسبب ما لم ترق لي الفكرة ..

كنت هناك صورة أشعة لرتبها مطقة جوار الفراش على
مصباح صغير .. من الخطر أن تلتقط صور أشعة سينية لامرأة
حامل لكن يبدو أنهم كتوا مجبرين .. أضف لهذا أنها - حتماً -
في مراحل الحمل الأخيرة .. وفي صورة الأشعة رأيت بوضوح
أن هناك حويصلة مائية في الرئة اليسرى .. هذا هو مشهد
(زهور السوسن فوق بحيرة) الشهير .. هذه الأشعة تعتبر بطاقة
هوية .. شهادة جنسية تثبت أن (مارجريت) صارت تنتمي
للتوركنا .. لقد نالت الخاتم الذي يميز هذه القبيلة عن سواها ..

في صمت أجهت إلى (مارجريت) التي كانت رائدة
مفتوحة العينين ، وهناك خرطوم محليل يتكلى إلى نراعيها ..
لقد غسل أحدهم وجهها بعناية فبدأت ملامحها تعود إلى
الوجود ..

وقلت جوارها بعض الوقت ثم قلت :

- « كيف حالك يا (مارجريت) ؟ »

سقت قليلاً وبدأت أكم على وجهها .. ثم قلت بصوت مبحوح :

- « إنه الساحر (لوكريو) .. لمرة واحدة على الأقل كنت
أنت محظاً .. »

- « لماذا فعل ذلك ؟ »

- « من البداية كان يكرهني باعتباره روح الشر في هذا
العالم .. ثم تلقى الأمر حين شعر بتزايد سلطتي .. »

- « وماذا فعلوا به ؟ »

- « لا أعتقد أنهم سيؤنونه .. إن فقد الزوجة خسارة
اقتصادية لا أكثر .. أما فقد ساحر القبيلة فكفر صريح ..
خسارة روحية قد تقضي على القبيلة ذاتها .. أعتقد أنهم
تركوه وشأنه .. »

سدا صمت طويل قطعه لنا بأن قلت ولنا تشير إلى الأشعة
المعلقة :

- « لقد انضمت بجدارة إلى (توركنا) .. هناك حوصلات
مقنية في كل سنتيمتر لعين من جسدك .. »

- « توقعت هذا .. إن حيلهم لا تستقى عن المقنية والكتاب ..
وطعامهم ملوث إلى حد كبير .. »

صعد اللم إلى رأسى ووددت لو صلتها :

- « أنت تعرفين هذا كله .. ولم يتزعزع موقفك قط .. »

- « ولماذا يتزعزع ؟ كنت أعرف ما ينتظرني .. »

انضلت في ضيق ولنا اضبط معدل مريان المسائل :

- « بالإضافة لهذا أنت عبقلى .. والأهم أنك كذبت علينا
مرتين .. أنت متروجة .. ولوراك الطمية تنهمر على المجلات ..
لم يكن للحب نور في قصتك هذه .. »

سدا صمت ثقيل .. وأعتقد أنني للمرة الأولى لصحت دمعتين
في عينيها ..

قالت دون أن تنظر لى :

- « أنت لا تعرف ما حققته هناك .. لقد قمنا بتكمير المشروع

النرويجى بالكامل .. أحرقنا ما تبقى من القوارب ! أغرقنا السفينة بالكامل واستولينا على أجزائها .. الثلاثات ثم تفكيكها .. فى البدء كانوا يرتابون بهى .. ولم يكن يفضلتى بشكل خاص ، ثم بدأ يتعلق بهى بشدة .. لا أحسبه قادراً على تركى يوماً .. »

وصطت ..

هنا استقبلت بهى الحيرة وقت :

« هذا تناقض لا شك فيه .. أنت جئت مع ذات الفريق النرويجى الذى أراد تنمية مشروع الأسماك .. »

قلت وقد بدأ العرق ينبت على جبهتها :

« جئت معهم بجسدى لكنى لست معهم بأفكارى .. إن النرويجيين يريدون تكدير مابقى من هذا الشعب .. أما أنا فلأريده كما هو .. أنت تعرف كيف .. كيف .. »

وبحثت عن تشبيه مناسب .. فى النهاية وجدت واحداً :

« تلك القردة فى السيرك التى يعلمونها تكخين الغليون ولارتداء البذلة ، كى نضحك نحن ونشعر أن أموالنا لم تضيع هباء .. كم تبدو سخيفة سمجة .. كم تبدو مبتذلة .. فى حين

يكون الفرد فى الفضل وأروع حالاته حين تتركه يمارس حياته فوق الأشجار .. تركوا (توركنا) كما خلقها الله .. كما كانت من مليون سنة .. لا تحاولهم إلى فردة تصطاد السمك كى تشعروا بالرضا ..

وقلت ونظرت لها ثم قلت بحزم :

- « لن تعودى هناك .. »

- « لا أعرف كيف يمكنك منى .. »

- « الخطر هناك دلم وحقيقى ومستمر .. »

- « هذا شأنى الخاص .. »

- « أنت هاربة من القانون .. يكفى أن أتصل بالسفارة

للترويجية وسوف نمرح كثيراً .. »

ضحكت .. محاولة ألا يصدر منها صوت ، لكن الضحك

غلبها ، لهذا الأكم على وجهها وهى تشعر بأن الجرح يتمزق ..

فلما انتهت للنوبة قالت :

- « كيف تثبت شيئاً ؟ أنا فى عالم بلا أوراق .. لا توجد

جهة مدنية واحدة أثبتت هذا الزواج فى أوراقها .. »

كفت أثناء ضحكها قد أرلعت الملاءة عن ساقها ، فرأيت ذلك
للخلخال الذي تضعه نساء القبيلة كلهن .. ووسط الطين الكثيف
حول كاحلها للتقطت عيني منظر الكدمة ..

قلت لها ولأنا أعيد الملاءة :

- « إنه يضربك كثيرا .. »

- « طيلة اليوم ولأنه سبب .. وما في ذلك ؟ نحن في
الحياة مسئولون عن قراراتنا ، ولأنا لم أر شيئا لم أتوقعه .. »

ثم اعتكلت في الفراش قليلاً وسألتني صا إذا كان يوسعها
أن تشرب ، فرفضت ..

بالت بلساتها شفتها الجافة ، وتأرجح رأسها قليلاً .. فهي
لم تلق بعد من تأثير المطر ..

قالت مغمضة العينين :

- « في وطني عرفت (سيجورد) .. المهندس الشاب
النجاح .. كان يعيش في عالم جليدي خاص به .. للنجاح
في العمل هو الشيء الوحيد الذي يورقه ، وكان يتظاهر بأنه
يفعل هذا من أجلنا .. لكنني كنت أعرف .. لو لم يكن في حياته
للفعل نفس الشيء .. وكنت له : لو كنت تفعل هذا من أجل

فلا تلمظنه .. لكنه كان غارقاً في هذا المجتمع الصناعي
 للبارد الصمغ .. لكم تمنيت لو يتشاجر معي .. يصلحني ..
 لم أره مرة واحدة مسروراً حطاً أو غاضباً حطاً .. وكنت
 أحلم .. أحلم بالأحراش الإفريقية .. بالتماسيح تتشاجر في
 النهار .. بالفراشات التي تهجم فجأة من خلف مستر
 الأشجار .. برقصات الليل تحت ضوء القمر .. هناك يروح
 الناس حطاً ويتألمون حطاً .. وهكذا بمجرد أن سمعت عن
 هذه الحملة التحلت بها ، ولم أسأله عن رأيه .. فقط حملت
 حقيبتي ورحلت .. »

ثم هممت بصوت كالصراخ :

.. « أنا لن أعود هناك إلا في تلووت .. »

تهبت لمغفرة الغرفة ، لكنها أصحت بحركتي فقلت بعينين
 مغمضتين :

.. « فقط أريد منك خدمة واحدة .. عالجني من الحويصلات
 المائية ثم أعطني إلى (توركتا) .. »

من الحكمة أن تنتظر حتى تضع وليدها قبل أن تعطيهها
 علاجاً .. لكنني لم أرد عليها وابتعدت مطرق الرأس ...

10 - العودة إلى البيت ..

عزيزي علام :

لم أحاول أن أراها ثقية ، وإن أصدرت تطيقتي بأن تعيدها
الطائرة إلى حيث جاءت بمجرد شغلها ..

لقد أحببتها كثيراً من ثم برد حبى لها سريعاً .. وتنكرت كلمة
(لوسكار وايلد Wilde) : ثمة شيء ما مبتذل فى عواطف الذين
كف المرء عن حبهم .. لهذا لم أعد على استعداد لأى تعاطف
معها من أى نوع ، وتمنيت أن يحطم رجال (توركوتا) رأسها
أو يطعموها لتماشيح بحيرتهم ..

- « أعتقد أنني خمنت الموضوع .. هؤلاء الصبية لا يصدقون
أننى فتاة رشيدة حرة الاختيار .. »

- « إن ألهمهم أبداً .. حسبت أنني أردت شيئاً هو من
صميم اختصاصى .. »

- « هذا شأنى الخاص .. »

- « ولماذا يتزعزع ؟ كنت أعرف ما ينتظرنى .. »

هذه كنت يوماً ردودها في كل ما يتعلق بها ، فنحنو نحن
مجموعة من الأوغاد الذين يحاولون فرض إرادتهم عليها ..
دعها تنق ثمن اختياراتها .. دعها تعلن قليلاً ..

وانشغلت تماماً في مشاكل (سلفاري) المعتادة .. جاءتنا
بعض وفود من منظمة الصحة العالمية ، وتفشى وباء نزفي
غريب استغرق وقتاً في حصاره .. وسفرت أسبوعاً إلى النمسا
بناءً على استدعاء من الإدارة .. وهو شيء خطر لكن اتضح
أن الأمر يتعلق بتنظيم جديد للمعاملات المالية للوحدة ..

لدى عودتي وجدت في الوحدة (كولفارد) - هل تذكره ؟ -
ومعه وجه نرويجي جديد هو د. (جيرار سمولدن) .. إنه خبير
في خواص التربة وقد جاء يواصل الدراسات التي قام بها
من سبقوه ..

قلت لـ (كولفارد) في تهكم :

- « لأصعب أن أتيكم ما تبحثون عنه الآن .. لقد يمر رجل
(نوركتا) كل ما يخص مشروع (نورك) .. »

لم يفعل ولم يفتضب .. فقط قال في نوع من الإحباط :

- « هذا هو ما جئنا لنناقشه .. إن الدكتور (سمولدن) قد
درس لتربة هناك جيداً .. »

كان (سمولدن) رجلاً أصلياً قصير القامة يمكنك بالفعل أن تعرف في أي شارع أنه خبير تربة .. ثم ألقى أحدهم من قبل لكنى عرفته حين رأيته .. وكان من الطراز الذي تعلم كيف يتكلم بهندوء ولهجة أمرة بسبب عقد سببها له قصر قامته في المدرسة قديماً .. هل تعرف هذا الطراز ؟

قال (سمولدن) بنهجته الرزينة أكثر من اللازم :

« الحقيقة أن كل شيء يدل على أن الرعي يحسن خواص التربة هنا .. لقد انطلقنا من موقف خاطئ هو أن الرعي يفسد التربة .. لا صحة لهذا .. بعكس أكثر النظريات العلمية نجد أن الأراضي التي رعت فيها ماشية (توركيا) استعادت صحتها .. ولقد حاولنا أن نجعلهم ينقلون مواشيهم إلى مزارع خاصة .. لكن حين جاء الجفاف وجدنا أن هذه المزارع لم تعد موجودة لتشكل احتياطياً .. هكذا أتت هذه الفكرة إلى موت أعداد كبيرة من الماشية .. »

ثم أنهم ما يقول فحدث استوتقي مما فهمت :

« تريد القول إن ما تفعله (توركيا) هو شيء الصحيح ؟ »

« نعم .. »

« ولأن المشروع لا قيمة له ؟ »

- « نعم .. كانت حصيلات خاطئة ، وقد أدركنا أن الطبيعة تعرف ما تفعل .. دع هؤلاء الرعاة يمارسون ما كانوا يمارسونه من مليون سنة .. »

تتهمت ارتيلحا .. لقد وصلوا بعد كل هذا القاء إلى النتيجة التي توصلت لها في مكتبى ..

قلت لـ (كولفارد) وأنا ألوك يدي :

- « معنى هذا أن رجالكم هناك سيرحلون .. »

- « هذا ما اتوينا .. »

- « والتبرع سيصل وحدة (سلفاري) لأنها قامت بما كلفت به بالضبط .. »

- « لم نعد التراجع في وعودنا .. »

فكرت قليلاً ثم قلت :

- « طبقاً لسيود الفريق ناقصاً اثنين .. رجالكم الذى قتهمتهم التماسيح وعالمتكم التى تزوجت .. »

هز رأسه فى حزن أن نعم ..

وهكذا صار بوسعى أن أستعد فريق العمل الذى كلفته بالزيارة

الأسبوعية لبحيرة (توركيا) .. وقررت أن الوقت قد حان
لركوب الهليكوبتر وتغلق للمنطقة مرة أخيرة ..

★ ★ ★

من جديد راحت للطائرة تهتز وهي تهبط الرمال في كل
صوب .. تصليح أطفال ونحت كلاب لكن الانطباع للعلم كان
بارداً كالعادة ، فلك (توركيا) كما قلت يفتنون الغرباء ..

ترجلت وأنا أحضى رأسي كي لا تكفى تيار الهواء لأسقط ..
وحين فتحت عيني رأيت عدداً من رجالى ورجلهم .. كانوا
يقتنون هناك بانتظار توقف محرك الطائرة كي يفتحوا
عيونهم أيضاً ..

تباً لوجوهكم الكالحة ! وجوه (توركيا) التى يبقها
الصحراء ، ووجوه رجالى الذين لم يعودوا الفضل حالاً ...

حرارة الجو شديدة يصعب أن تصلىها .. ومن بعد تترجرج
لوجودات فى تيار الهواء الساخن المتصاعد فتشعر كأنك
نهاراً فوق مستوى الأرض ..

ستكون هذه آخر مرة ، ولسوف أغم بها ..

قلت لرجال (سافارى) :

« لقد انتهت معالمتكم يا شباب .. إن الترويجيين أعتلوا أنهم
حمقى .. لقد قمنا بما استطعنا .. »

قال لي د. (ميكوس) لذي صيرته الشمس زنجياً تملأ
ما عدا بعض خصلات الشعر الأحمر :

- « ثمة مشكلة صغيرة يا سيدى .. العالمة النرويجية .. »

- « هل هي هنا ؟ »

- « جلبوها لى .. أنت تعرف أن القبيلة لا تستقر فى مكان ..
حدود قراهم تتغير كالضلال فى كل لحظة .. لكنهم استقروا هنا
منذ يومين .. »

- « تقول إن هناك مشكلة ؟ »

- « لقد وضعت مولودها من أسبوعين .. لكنها ليست على
ما يرام .. »

قلت ممرضة من (سافرى) وهى ترتجف :

- « لقد رأيت عملية وضع سابقة هنا .. أسلوب غير
إمساكى .. يقطعون الحبل السرى بالأسنان ، يستخدمون
روث الماشية بكثرة ! »

- « روث ماشية !؟ »

وبدون كلمة أخرى مشيت وراءهم .. إننى أتوقع الأسوأ ..
طبعاً توقعت أن يقولوا إنها ماتت ، لكنها لم تمت ومعنى هذا
كارثة أخرى ..

كانت هناك هضبة صغيرة ثبتت تحتها مجموعة من جلود
الماشية على شكل خيمة ، وجوار الخيمة كانت هناك عجوز
(قهرماتة) تكف على ساق واحدة تراقبنا .. أعتقد أنها
مولدة القبيلة .. ثمة ماعز تتخصص جلود الخيمة بأنفها
وعظف يلعب فوق الرمال ..

لزحت أستر الخيمة وبخلت ..

كان الجو ظليلاً بالداخل .. وعلى الرمال - دون أية حشبة -
كانت (مارجريت) رائدة .. لشد ما تغيرت ! تغيرت حتى من
آخر مرة لايتها فيها .. تلك الشحوب وكل هذه القذرة .. لا يوجد
فيها شيء سوى إلا عيناها الزرقاوان الراميتان .. وكانت ترمقني
وهي رائدة وخيل إلي أن شبح ابتسامة تلاعب هناك ..

كان رأسها يستند إلى حقيبة من البلاستيك ، ورأيت طرفاً من
محتوى الحقيبة .. إنها مليئة بأوراق خبطت باليد ..

لقت لها وأنا أركع على الرمال جوارها :

« كيف حالك يا (مارجريت) ؟ »

لم تنطق وإن تحركت شفتاها قليلاً ..

فنوت منها أكثر وتحصت ذراعها لتحيلة .. وعنت لسألها :

« بم تشعرين ؟ »

لم تنطق بحرف .. وإن ظلت عيناها تنظران لي طيلة الوقت ..
مددت يدي وتحصصت فكها ، ثم بحثت في جيبى عن أداة
تصلح لى لم أجد إلا قلمي .. فتحت فمها بكثير من الجهد ، ولولجت
القلم حتى لامس اللهاة .. على حين رحت لأكلمها كمن يكلم
حبيباً جامحاً :

- « صبراً .. هذه فتاة طيبة .. صبراً .. »

الآن اتضح كل شيء .. إتنا فى ورطة حقيقية ..

نهضت وخرجت إلى الرجال الواقفين ، وجلست على الرمال
شاعراً بالرجلة تزحف على عصى الفقرو ..

- « مارأيك يا سيدى ؟ »

نظرت له فى ضيق وقلت :

- « مثل رأيكم .. لو لم تكونوا قد تبينتم التشخيص الصحيح
فلتتم حملي .. »

11- وداعاً توركانا ..

عزيزى علاء :

قال ليونتى وهو يمسح عرقه :

.. « تينانوس (كزار) أصابها أثناء الولادة .. هذا واضح ..
فقط أردت رأيك .. »

من علامات الكزار الأولى والمهمة أن للفكين يتقلصان
فلا تستطيع فتحهما .. لهذا السبب يهتم أهل القبيلة بتهشيم
بعض أسنانهم على سبيل الاحتياط حتى لا يموتوا جوعاً
لو أصيبوا بالكزار .. طبعاً يكون للصوت محتوماً لكن ليس
بسبب الجوع على الأكل ..

حيث توجد جروح ملوثة خاصة بروت العاشية يصير
الباب مفتوحاً للكزار .. ومن الواضح أنها لم تنلق نلقاً أثناء
الحمل أو قبله .. الباقية أرادت أن تعيش حياة (للتوركنا) وقد
عاشتها حقاً .. عاشتها حرفياً .. عاشتها بكل التفاصيل ..

قلت وأنا لمسح وجهى :

.. « لا يوجد حل آخر .. لابد من نقلها إلى (سطرى) حالاً ..
لا يمكن تقديم الحد الأدنى من العناية هنا .. »

وفي هذه اللحظة سمعناها تشهيق .. وبدأت تشنجات الكزاز الشهيرة ..

صحت منادياً (ميكوس) وأنا أهرع إلى الخيمة :

« إلى بعض (البنزوديازيبين) .. هل لديكم بعض مضادات التشنج هنا ؟ »

وسالت فوضى عامة .. لكل يبحث عن عطار يصلح في جعبته .. طبقاً الإمكانيات وسط هذه الصحراء تعتبر نوعاً من الترف ، وقد قلم (ميكوس) بتعبئة المحقن وفرغه في وريدها ، بينما لتشنجات تأخذ طبعاً أعنف .. تلك الضحكة للصبراء على الشغل كشفة عن أسنانها ، والتقلص الضيف في الظهر الذي قد يصل أحياناً إلى تحطيم فقراته .. ثباتاً إن الحالة عنيفة !

أخيراً مرت النوبة على خير .. المشكلة في مرض الكزاز أن المريض يظل واعياً طيلة الوقت .. لا يفقد رشده أبداً .. قلت للشهاب :

« هلموا .. سنحملها إلى الطائرة .. »

هنا رأينا مجموعة من (التوركنا) يقتربون منا .. أحدهم كان الزعيم (كوباكو لاجا) ..

كان يتكلم في تؤدة .. ضاغطاً بقدمه على الرمل مع كل خطوة كأنه يريد ترك أثرها للأبد ..

هتاف (كوفارد) الذي وقف مع الرجال جوار الخيمة بشيء ما باللغة القبلية، فرد عليه الزعيم بخطاب طويل ..

سأنته وأنا أنهض من جوار المريضة :

- « ماذا يقول ؟ »

- « يقول إنها لن تذهب لأي مكان .. »

صحت في عصبية وقد صعد الدم لرأسي :

- « جميل ! لكنه ترك زوجة أخرى تكلم في وحدة (سفلوى) ولم يسل عنها إلى أن عانت سنيمة .. »

- « هذا هو بيت القصيد .. إنه يعتقد أنكم لن تصيدوها له ثقية .. إن الرجل الأبيض يريد استرداد المرأة للبيضاء .. »

نقرت إلى (كوبابكو لاجا) مفضياً، وقلت :

- « قل له إنها تموت .. وإن علاجها في يدينا .. »

نقل له عمارتي، فهز هذا الأخير رأسه .. إنه للرفض كما واضح ..

- « يقول إنها ستموت في قريتها .. إن باقي الزوجات يعنين بها .. »

كان الأمر معقداً .. الرجل مصر ونحن برغم كل شيء نتحدث
عن زوجته .. ثم إن التفاعل عن طريق مترجم أمر بالغ
الصعوبة .. عنت لكرر عليه :

- « لابد من الضحية بها .. »

فجاء الرد الثابت :

- « لن نذهب لأى مكان .. »

ثم - كآتهن فى موكب الموت - جاءت الزوجك .. لابد أن
عدهن لا يقل عن ست .. وأحطن بالخيمة وهن يظهرن الضحية
بالمريضة .. ولكن كيف تعنى مريض كرزق من دون مستشفى ؟
قال لى (كورفالذ) وهو يحلف عرقه :

- « لا جدوى يا بروفسور .. لن نستطيع أخذها من دون
قتل .. »

- « ربما نلجأ إلى السلطات ؟ »

- « لن يساعدك أحد .. إن (تورككا) لها عالمها الخاص
وأوقاتنها الخاصة .. لنقل إليها قهيلة تحب القاتون
لوفوقه .. »

وجلسنا فوق الرمال عاجزين عن اتخاذ القرار الصحيح ..
إن الوقت يمر .. لابد من عمل سريع ..

فجأة سمعنا صوت ضوضاء .. صوت غناء خشن موقع ، ثم
ظهر لنا ذلك المخبول الآخر : (لوكيريو) .. كن يحمل قبة
جمجمة فارغة يبدو أنها تخص بشرياً ، وفي يده الأخرى مدية ..
كان يتجه نحو الخيمة ...

الصحى للنساء له الطريق فرجع على ركبتيه جوار
المريضة .. ثم شعر العلية وراح ينشد .. إنه بيغى قصدها !
هذه هي الظلمة الكبرى لأن مريض الكزاز لا يتحمل أى مؤثر ..
ستبدأ التشنجات فوراً .. أضف لهذا أن له تاريخاً غير مشرف
فى طعنها من قبل ..

صحت فيه فى هلع :

« انتظر أيها المجنون ! إنك ... »

لكن كان هناك من يتحرك أسرع من صوتى ..

إنه ذلك الفتى (أوسكار سفيردراپ) الذى عرفنا من قبل أنه
قصير القليل سلخن الرأس ..

قبل أن أفهم ما يحدث وثب فوق المخبول وقتلعه من مكانه
كأنه بحاجة ، ثم ألقى به على بعد مترين فوق الرمال ..
انتفض الساحر المجروح فى كرامته وراح يصوب إصبعين
ملتوحين نحو صدر الفتى وهو يردد تعالويز ما ..

لكن الفتى كان يملك تعلويذ أخرى .. تعلويذ ترويجية
لا شك في أنها تحمل الخطع للصلاب .. لقد انطلق كالسهم نحو
الصحار الرافد على الأرض ووجه ركلة عنيفة إلى نقه ..

بعد هذا كفت معركة عنيفة ، لكنها من طرف واحد .. بنكرنى
الأمر بألعاب الكمبيوتر التى تتم من طرف واحد .. الصلح رحو
لا يستطيع الفكك بينما الركلات واللجمات تنهمر فوقه ..

لم يحاول واحد منا أن يتدخل .. فى الواقع راق لنا الأمر
إلى حد ما ..

وانتقلت (كولفارد) إلى رجاله وقاتل شيئاً ما فتوتروا ..
قال لى مفسراً ما قتل :

« أمرتهم بأن ينقلوها إلى الطائرة .. سنأخذها قسراً .. »

كان هذا ليكون أسهل لو لم تبدأ الزوجات فى الصراخ
كالنجلجات المذعورة .. رحن يولوان ويلطمن الخنود .. يمكنك
بسهولة أن تعرف ما يلقن : تعالوا لتتقنوا (لوكيرو) ! إن الكرة
البيض يريدون قتله !

للمرة الأولى لرى الوجه المتوحش من (توركفا) .. لم أسمع
قط أنهم مفلتون .. هم رعاة مسلمون متشككون .. لكن الوضع
الآن مختلف ..

هناك عشرون من رجالهم يركضون فوق الرمال نحونا ،
وهم يلوحون بعصى خليطة .. الغضب على الوجوه .. ومن
الأقواء الخالية من الأسنان تخرج صرخات الموت ..

استند (كولفارد) واتخذ وضعا قاتليا منتزعا يصلح لمواجهة
(بروس لي) شخصيا ، فلفظ لترتطم عصا بصدغه فهوى على
الأرض والدم يسيل من جرحه ..

هوت عصا خليطة على الشاب (سليدراپ) فتكوم أرضا ،
لكنه استجمع قواه والتقط العصا ثم ضرب بها ساقى مهاجمة ..
والتحما على الأرض في قاتل عنيف ..

وأخيرا برز الزعيم وهو يحمل أغلف عصا في المجموعة ..
تجه نحوى فوقفت بلا مبالاة أنتظره ، عالما أنها النهاية
على الأرجح ..

لكنه نظر لى ثم واصل الركض بحثا عن فريسة صالحة ..
إن الموقف يمكن تحويره إلى حد ما .. لنا حموه .. ثمة رابطة
عائلية بيننا ..

لكن لا رابطة تصله بـ (كوسلان) ، لهذا هوى على كتفه بالعصا
فسمعت صوت تهشم العظام ..

الآن بدأ لنا فى أموا وضع ممكن ..

هنا سمعنا صوتاً واحداً ينادى :

- « (ميكوويوس) ! »

نظرنا للوراء فرأينا (مارجريت) ترتفع خارج الخيمة ، وكانت خمولاً تماماً بفعل المطر الذي حقتناه لها .. لكنها تتحمل .. تهر نفسها كالسحلية فوق الرمال وهي تكرر لا انقطاع :

- « (ميكوسس) ! قف أمامهم .. ليكن جسدك حليزاً ! »

ثم صلحت بالتيالية الواحدة قليلة شيئاً ما للرجال الغاضبين ..

- « (إيموسوكوت لوكينجارين) .. (إيموسوكوت لوكينجارين) ! »

هنا فقط وقف (ميكوس) بيننا ورجال (تورككا) .. كان يرتجف لكنه تلمسك وفتح ذراعيه عن آخرهما : كلما هو يطلب الاستشهاد في إحدى صور الفن البيزنطى الأيقونى ..

هل هو السحر ؟ الرجال يتخلسون عن حسيهم .. يفنون صامتين .. ثم تنكس منهم الرعوس ..

زحف (كولفارد) إلى جوارى وهو يخطى الجرح التلذف في صدغه بمنديلته ، وقال وهو يلهث :

- « لقد فكرتهم المرأة بأن (ميكوس) معنا .. و (ميكوس) هو روح الإسكندر الأكبر .. لا أحد يستطيع أن يؤذيه أو يؤذي رفاته .. (إيموسوكوت لوكينجارين) .. »

ما زال تفكيرها صلياً ، وهذه هي مزية وملساء مرض الكرو ..
 ساد صمت رهيب ..

هنا تجاسرت وركضت إلى حيث كانت المرأة تزحف على
 الرمال ..

صمتها بين نراعي الواهنتين إلى الخيمة ، وهممت في أنها :

- « ما كان عليك أن تغطي هذا أيتها المخبولة .. »

قال وهي تلهث ودون أن تفتح عينها :

- « أنا سببت لكم الكثير من الأذى .. أنا آسفة .. »

- « هلا استمعت لمصالحك هذه لإقاعهم بأخذك إلى المستشفى ؟ »

استراحت في مرآدها من جديد ، ومدت يدها إلى الكيس
 الذي كان تحت رأسها وقالت :

- « دعك من المسخف .. أنت تعرف أنها النهاية .. فقط

أطلب شيلين : لن تتكلم من أن طفلي سينشأ هنا .. سيكون من
 (التوركتا) بلا تدخل منكم .. »

لمتلعت تعليقاتي وقلت على مضض :

- « لك هذا .. »

.. « المطلب الثاني هو أن تحافظ على هذه الأوراق العظيمة ..
 إنها خلاصة ملاحظاتي .. أعطيها لـ (لوكي) وهو سيعرف كيف
 ينشرها ويفيد منها .. »

ثم مدت يدها لمسح شيئاً على وجهي .. هذه سمعة .. متى
 نبتت هناك ؟ لم أشعر بها قط ..

قلت وهي تسعل :

.. « تذكر أنني فعلت ما أريد وكنتى سلمت راضية سعيدة .. »

وفجأة وقبل أن أزد أنا داهمتها نوبة تشنج عنيفة ..
 ارتسمت الضحكة (السلوبونية) الصفراء على ثغرها وبذلت
 أطرافها لتتشنج .. اللون الأزرق يغزو شفيتها ..

خرجت من الخيمة صارخاً :

.. « إلى بالموت ! نوبة أخرى ! »

في هذه اللحظة أطلق رجال (توركاتا) ونسأوها نوعاً
 من العويل الذي يحطم الأعصاب .. أئيناً طويلاً لا ينتهي من
 الشغاف كلها .. وكان أعلى الأصوات صوت الزعيم ..

.. « لخرسوا يا حمقى .. أنا لا أسمع نفسي ! »

ورحنا نحاول في بلاهة أن ننقذها .. لكن ما عجزنا نحن عن فهمه ، فهمه (لتوركنا) بغريزتهم لصلابة .. لقد ملكت المرأة وما عدا هذا مجرد رتوش ..

رحنا نحاول .. حققتها بكل شيء معنا .. الكثير من الهستيريا والصراخ .. ومن ثوب كلمة أخرى أخرج (كولفارد) كتابه المقدس للصغير من جيبه وركع جوار رأسها يتلو .. صحت فيه :

- « هل تعرف الطقوس ؟ لأن ترتكب أخطاء ؟ »

قال همنا وهو لا يرفع وجهه عن الكتاب :

- « لا أعرف .. لكني أحاول كما تحاولون فتم .. »

فليرحمها الله .. إن حياتها مزيج غريب من الأخطاء الفاحشة والشهامة والشجاعة والكذب والحمق .. لا أعرف ما يستطيع عقل بشري أن يستخرجه من هذا المزيج المعجب ، فلتترك أمرها لقرار أحكم وقوة أعلى ..

عويل الرجال والنساء يمتزج بصوت (كولفارد) الرخيم وهو يصلي .. يمتزج هذا كله بصوت أفلسي وصوت سباب (سفيردراپ) القرويجي ..

كلنا نقف هناك متكسي الرعوس .. نرويحيون ورجال
 (سافاري) وبناتيون من (توركنا) .. كلنا ترمق الجثة التي
 كان لها نور مهم في حياتنا جميعاً .. كلنا بشر نقف في
 الصحراء .. كلنا للموت قد اذاب أية فوارق حضارية بيننا ..
 الشمس تغرب .. صورنا تتحول إلى ملويات فوق خلفية
 زرقاء ..

والبرد بدأ يزحف

عزيزي هلاء :

انتهت القصة ..

لا أعرف ما يمكن أن تستخلصه منها لكني عرفت أن أحشائها
 من دون أن أقصها عليك ..

لقد تعلمت شئين على الأقل : إن (توركنا) جميلة كما هي
 فلا تحاول أن إفسادها .. إنها جزء من الطبيعة ذاتها كتمسح
 النهر والشلالات ومساقط المياه والفيضانات .. لا يمكن تغييرها ..
 من الخطر تغييرها ما لم تتغير هي من تلقاء ذاتها .. فقط علينا
 أن نكون قريبين نساعدهم متى أرقوا المساعدة .. لكن من دون
 عطف متعصب مسبق ..

الشيء الثاني هو أن (مارجريت) ماتت سعيدة .. لك أرايت
 هذه الحياة واشتيت تلك الميتة .. في الخلاء ترى السماء من
 فوقها وتشعر بالصعراء من تحتها .. ماتت كامرأة عادية من
 (توركيا) بعد آلاف الأميال عن وطنها .. من الصعب أن نختل
 للآخرين ما يجب أن يحبوه ..

نحن مسئولون عن قراراتنا وعلينا أن نتحمل النتيجة ..
 كل الموجودين قالوا هذا ، لكن ما قرأته في كتابات
 (سارتر Sartre) و (هجر Hedger) لم يؤثر في قط كما
 أثر في هذا المشهد .. موتها بالكزاز في تلك الخيمة في
 صحراء شمال (كينيا) هو باختصار شديد نتيجة القرار
 الذي اتخذته .. وأشهد أنها تحملت تلك النتيجة بشجاعة ..

على الأقل سيعيش ابنها وسط (توركيا) .. سيعيش
 جزء من جيناتها هنا للأبد ...

لكنني إن أنسى بسهولة ..

سأظل أنكرها كلما رأيت حالة حيوصلات مقلية أو كزاز ..
 وكلما سمعت اسمي (النرويج) أو (توركيا) .. وكلما غربت
 الشمس .. بل كلما تنفست ..

لا أعرف ما سيكون في حياتي غداً ، لكن كل هذا هو الحب

الأخير - وربما الأول - ولا أفكر أن هذا الخليط من التناقضات
الذى كان يعيش فيها قد استلب لى كماله بفعل شيء آخر
فى العالم ..

أكتب هذه الرسالة وأعدك أنى لن أعود للكلام عن هذا
الموضوع ، كما ستعدنى أنت بأنك ستتمسك كل شيء عنه
وإن تحكيه لمخلوق .. يجب أن يبدو مدير (سافارى) رمزًا
للطب المتجرد البارد الخالى من المشاعر الشخصية ..

هذا هو ما يجب أن يكون .. وهذا هو ما سيصير إليه
حلى ، بمجرد أن تأخذنى عجلة الأحداث قهرية والغريبة
هنا فى (سافارى) ..

(شارل سينوريه)

يبدو

تمت بحمد الله

سافاري

مغامرات طيبين كتاب لجاهد
لكن يظل حياً ولكن يظل طيباً

روايات
مصرية
الحديث

توركانا

هذه قصة من الطراز الذي تعرفونه جيداً ..
علماء نرونجيون وجمعية أثرية ومصانع أسماك
ودودة قاتلة .. قصة عن قبيلة تدعى (توركانا) .. هي
من أغرب القبائل على وجه الأرض وأقدمها وأكثرها
فقرًا .. قصة عن قبيلة تحاول الاحتفاظ بكيونتها في
عالم يتغير في كل لحظة كالشلال ..



د. احمد خالد توفيق

العدد القادم
حكاية ثقب

الذين في مصر
وميلاده بالولايات المتحدة
في سائر الدول العربية والعالم

